HISTORY AS IT HAPPENED



كتوبيا KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

مقدمة

«كل شخص يكتب التاريخ حسبما يناسبه»...

هكذا قال خوسيه ريزال الأديب والمناضل الفلبيني الذي أعدم على يد الاحتلال الأسباني، لا تبدو العبارة صادمة بل يتفق الكثيرون على كونها حقيقية إلى حد بعيد. يردد البعض أن الطغاة دوما ما يزيفون تاريخهم، يعمدون إلى كتابته وهم أحياء ليصوغوه كما يحلو لهم، بل ويتآمرون بعد موتهم مع الأجيال اللاحقة حتى يخفون جرائمهم ويجرون جراحة تجميلية لصفحات التاريخ المهترئة المتهالكة التي تحمل أسماءهم فيزينوها بزخارف خادعة. لكن المثير حقا هو التغاضي - المتعمد أحيانا - عن عمليات التجميل العكسية التي يجريها الكثيرون لتاريخ مجيد تشوبه بعض الشوائب الحتمية، ويعلق بثوبه الأبيض القليل من السواد الذي لا يضيره ولا يضير أبطاله بل يجعلهم أقرب للبشر منهم إلى الملائكة.

يخطئ المسلمون كثيرا حين يعمدون إلى التعامل مع التاريخ بنظرة أحادية، يمجدون ويجلون عظماء الإسلام فلا يرون إلا إنجازاتهم ويصبون لعناتهم على أعدائهم. يظنون أن هذه المنهجية هي الوسيلة المثلى لرفع راية الإسلام عاليا وتبجيل الحضارة التي بناها المسلمون الأوائل وطورها الأبناء والأحفاد، متجاهلين أن تجميل التاريخ -حتى وإن كان حسن النية- يضر أكثر مما ينفع، وأن الحضارة الإسلامية لا يضيرها بعض الزلات المنطقية ولا يقلل منها أو ينتقص من قدرها أن يرتكب بعض رجالها أخطاء بشرية لا ينبغي أبدا التنصل منها.

يعج التاريخ بالكثير من المواقف التي يخجل البعض من مجرد الحديث عنها أو الدخول في نقاش حولها، يتحاشى الجميع ذكر حادثة مقتل الأمير شاهزاده مصطفى حتى لا يضطرون إلى التورط في الاعتراف إما بتورط السلطان سليمان القانوني في قتله أو بضلوع الأمير الشاب في محاولة انقلاب على والده، ثمة اعتقاد بأن سليمان

العظيم لا ينبغي له أن يخطئ ومصطفى البريء لا يمكن أن يكون متمردا، لا ينبغي للعظماء أن يخطئوا، وإن أخطأوا سقطوا وسقطت معهم إنجازاتهم كلها.. هكذا يتخيلون، يتناسون أن موسى عليه السلام قد قتل وأن الصحابة قد اقتتلوا فلم ينقص ذلك من قدر أيهم شيئا. ليس هذا دفاعا عن سليمان أو مصطفى أو تبريرا لأخطاء من أخطأ منهم، لكنه فقط محاولة لجعل التاريخ بشريا بقدر الإمكان.

لو أمعنا النظر قليلا في بعض التفصيلات التاريخية التي يغض المتعاطفون الطرف عنها، لوجدنا العديد من هذه اللمحات البشرية المماثلة لحالة القانوني وولده، يظهر ذلك جليا في عظماء الإسلام أمثال صلاح الدين الأيوبي والحكم بن عبد الرحمن الناصر، هؤلاء العظماء الذين ازدهرت الدولة الإسلامية في عهدهم أيما ازدهار، ثم لم تلبث أن انتكست حينما عهدوا إلى أبناءهم بخلافتهم، فنرى أبناء صلاح الدين وقد تناحروا من بعده وانقسمت الدولة الإسلامية لدويلات، بينما عهد الحكم لابنه هشام، الصبي الذي لم يتجاوز الثانية عشرة، فكان أن سقطت دولة الخلافة في الأندلس بعدها بنحو خمسين عاما.

في المقابل يخشى محبو التاريخ ناصع البياض الزج بأنفسهم في حوارات ربما تقود لاعترافات ببعض حسنات أكابر المجرمين من أعداء الحضارة الإسلامية، فيظهر أتاتورك كطاغية علماني فقط، يتحدث الجميع عن إرثه السياسي دون العسكري، بل حتى وإن تطرقوا إلى رصيده الحربي يتم دائما استخدام قاموس المؤامرة والتلميع المتعمد وغيرها من الكلمات التي تجعل من أي نصر عسكري حققه أتاتورك مجرد تمثيلية متقنة. والحقيقة أن التطرق للمعارك التي شارك بها أتاتورك لا يعني أبدا الاعتراف بها أو إنكارها، لا يعني دعمها سلبا أو إيجابا، لكن الغرض الحقيقي من تناولها هو فقط لفت الانتباه إلى وجود احتمال ولو ضئيل لأن يكون أحد أعتى أعدائك وأسوأهم متميزا، تماما كما يمكن لأحد أهم أبطالك أن يرتكب بعض الحماقات أو ربما حتى الجرائم.

لم تقتصر سجلات الشرف والمجد على هذه السقطات -الضئيلة إذا ما قارناها بقرون من الأمجاد- ولم يتوقف قطار نظرية الإنكار -الذي كان أتاتورك أحد ركابه- فقط في محطة إلغاء الخلافة بل كانت رحلته طويلة امتدت منذ فجر الإسلام وصاحبت رحلة الحضارة لحظة بلحظة. لكن المحاولات المضنية لإضفاء الصورة الملائكية على التاريخ البشري الإسلامي في مقابل الصورة الشيطانية للآخرين لم تعد تؤتي أكلها، بل لقد ظلت هذه المحاولات دوما عبئا على التاريخ الإسلامي والمنتسبين له، ودفعت العديد من كارهي هذا التاريخ وهذه الحضارة إلى محاولات تشويه عكسية دفعت بتراثنا كله إلى حافة الهاوية وعمدت إلى التشكيك في ثوابته قبل نقاطه الخلافية. لذلك كان لزاما على من يؤمنون أن الغرض الحقيقي من قراءة التاريخ هو أخذ العظة والتعلم لا التفاخر والتعصب، أن يخوضوا معركة الحقيقة، تلك المعركة التي تهدف إلى صياغة التاريخ كما كان وليس كما يجب أن يكون.

بقلم: أيمن حويرة

* * * * *

جدليات

هل يخطئ الإسلام أم المسلمون؟

بقلم أيمن حويرة

- اغتيل أبنير ابن عم شائوول أول ملوك بني إسرائيل على يد يؤاب ابن عم الملك داوود ثاني ملوك بني إسرائيل.

- اغتيل الرئيس الأمريكي (المسيحي) أبرهام لينكولن في ١٥ أبريل ١٨٦٥ على يد الأمريكي (المسيحي) جون بوث.

- اغتيل ولي عهد النمسا فرانز فرديناند في ٢٨ يونيو ١٩١٤ على يد غافريلو برينسيب عضو تنظيم اليد السوداء الصربي.

هكذا يظهر جليا أن هناك مسيحيون قتلوا مسيحيين ويهود قتلوا يهودا، تماما كما قتل مسلمون مسلمين. بل لو تابعنا قليلا البحث في تاريخ العالم منذ ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرنا سنستطيع بسهولة بالغة أن نتعرف على أحداث هامة قام فيها مسيحيون ويهود وبوذيون ومجوس وهندوس بقتل مسلمين في حوادث بشعة لا تجد بسهولة ما يضاهيها في التاريخ الإسلامي. لكن ولأن التاريخ يجب أن يسرد كما كان لا كما يجب أن يكون فإن الإنصاف يقتضي التصريح بأن التاريخ الإسلامي -مثله مثل غيره- لم يخل من لمحات دموية، أحيانا لها ما يبررها وأحيانا أخرى كانت خطأ فادحا حتى وإن تدثر بالسياق التاريخي والحتمية التاريخية.

يردد الكثيرون أن عثمان قد قُتل بأيدي مسلمين وكذا علي والحسين وطلحة والزبير، حارب المسلمون إخوانهم في الجمل وصفين ونهروان فقتلوا وقُتلوا.. نعم، حدث هذا وأكثر، بل لقد قتل في هذه المعارك آلاف من حفظة القرآن، ولكن هل يعيب القرآن أن يقتل حافظوه حافظيه؟ هل ذكر القرآن نفسه عصمتهم من الخطأ؟ بل هل كانت معاركهم وصراعهم هذا إلا من أجل هذا القرآن وهذا الدين؟ هل أخطأوا في اجتهادهم؟ بالتأكيد أخطأ بعضهم، لكن قراءة سريعة لأحداث هذه الفتنة ونظرة على موقف علي ومعاوية رضي الله عنهما وحرصهما على حفظ أرواح المسلمين من كلا الفريقين ثم الاحتكام إلى كتاب الله تخبرنا بنبل المعركة وسلامة النية حتى وإن شابهما خطأ في التطبيق.

قاتل الأمويون عبد الله بن الزبير في مكه وضربوا الكعبة بالمنجنيق وقتلوه، ثم قاتل العباسيون الأمويين وقتلوهم فلم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن هشام (صقر قريش). فهل ينقص هذا من قدر الدولة الأموية أو العباسية شيئا؟ هل تنفي هذه الأحداث أن الأمويين هم من أوصلوا الإسلام إلى افريقيا والأندلس والهند؟ هل كان الإسلام ليبقى لولا أن حافظ عليه بنو العباس خمسة قرون كانت بغداد فيهم نجم يضيء

الشرق بحضارة لم تجد من ينافسها إلا حضارة الأمويين في الغرب الأندلسي؟

لقد قتل قابيل أخاه هابيل فلم يصم هذا القتل نسل هابيل، وقتل السلاطين العثمانيون إخوانهم فلم ينقص هذا من قدر ما حققه بنو عثمان، كانوا بشرا فكان حتميا أن يخطئوا ويصيبوا وأمرهم في الآخرة عند ربهم، لكن هدم الصرح الذي بنوه فقط لكونهم بشر يخطئون هو عين الخطأ. أيضير الإسلام أن يرتكب أحد من يدينون به ذنبا؟ أيعقل أن يصبح مصير حضارة سادت العالم عدة قرون مرتبطا بتصرفات مجموعة من البشر تصيب وتخطئ مثلهم في ذلك مثل قياصرة روسيا وأباطرة الدولة البيزنطية وملوك فرنسا وأسبانيا وأكاسرة الفرس؟ لماذا يتم التعامل مع الحضارة الفرعونية بتبجيل صارخ لا ذكر فيه لما فعله الفراعنة بشعبهم ولا لوم فيه لمن سخّر شعبا كاملا لبناء مقبرة؟ لماذا يتم التغاضي عما فعله الرومان مع المسيحيين والكاثوليك مع البروتستانت؟ لماذا يقتل إيفان الرهيب ابنه فيذكره التاريخ كواحد من العظماء بينما يصر البعض على نزع كل إنجازات سليمان القانوني بعد قتله لابنه مصطفى؟ لا أخشى حقا أن أقول أن سليمان قتل مصطفى الذي ربما لتغير مصير الدولة العثمانية والعالم كله لو كان قد تولى السلطة بعد أبيه، لكني لا أجد في نفسي الرغبة في الدفاع عن هذه الحادثة أو محاولة تفسيرها، الدفاع عن موقف الأب القاتل أو الوقوف في صف الأمير المقتول غير مجدِ تماما، هي في النهاية معركة للدفاع عن مسلمين لا عن الإسلام نفسه، محاولة لتبرئة خليفة لا الخلافة ذاتها. وهل تمنع رخصة القيادة حاملها من ارتكاب الحوادث؟ وهل ارتكاب الحوادث دائما ما يأتي كخطأ من السائق؟ بل وهل كل من حمل هذه الرخصة هو أصلا أهل للقيادة؟

سيظل الأطباء يخطئون ويقتلون مرضاهم سواء كان ذلك نتيجة إهمال منهم أو خطأ غير مقصود، وسيبقى الطب وتبقى حاجة الناس له، ستسقط البنايات لخطأ في التصميمات أو البناء فلا يطالب أحد بإلغاء

مهنة الهندسة، سيخطئ القضاة ويسهو الحراس وتخسر الجيوش المعارك فلا يلوم أحد على البشر كونهم بشر. سيخبرونك بأن كل من قتلوا وقُتلوا في هذه الدنيا لم يكونوا إلا مسلمين يريدون خلافه إسلامية، وسيتناسون أن كل من عاشوا منهم طوال ثلاثة عشر قرنا عاشوا في كنف هذه الخلافة. هذه الخلافة التي لن تمنع الكذب والقتل والسرقة والخيانة أحيانا، تماما كما لن يجعل أي نظام سياسي آخر الحياة أكثر روعة أو سلاما.. من أدعى أننا لم نقرأ ونتدبر من التاريخ يسيء تعريف التاريخ نفسه، فالتاريخ ليس ما يجب أن يكون وإنما هو ما كان فعلا.

*****

هل يخطئ الآخرون دوما؟

بقلم أيمن حويرة

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب

من فل جيش ومن أنقاض مملكة

ومن بقية قوم جئت بالعجب

ومسلمو الهند والهندوس في جذل

ومسلمو مصر والأقباط في طرب

ممالك ضمها الإسلام في رحم

وشيجة وحواها الشرق في نسب

تقول لولا الفتى التركي حل بنا

يوم كيوم يهود كان عن كثب

***

ضجت عليك مآذن ومنابر

وبكت عليك ممالك ونواح

الهند والهة ومصر حزين

تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس

أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث

بالشرع عربيد بالقضاء وقاح

أفتى خزعبلة وقال ضلالة

وأتى بكفر في البلاد بواح

***

هذه الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي، عشرة أبيات تتحدث عن نفس الشخص لكنها من قصيدتين مختلفتين. القصيدة الأولى صاغها بعد انتصارات أتاتورك في حرب التحرير نهاية عام ١٩٢٢ وأغدق فيها عليه بالمديح والثناء مشبها إياه بخالد بن الوليد رضي الله عنه، أما الثانية فكانت بعدها بأقل من عام ونصف، كتبها بعد إلغاء الخلافة وفيها كال السباب وصب اللعنات على نفس الشخص -خالد الترك كما سماه في القصيدة الأولى- متهما إياه بالضلال والكفر. الهند التي كانت جذلة صارت بعد عام واحد فقط والهة ومصر التي طربت غدت حزينة والفاعل في كلتا الحالتين هو أتاتورك. ذلك الرجل الذي يصنف كأعتى أعداء رجال الفكر الإسلامي ولهذا السبب صار قائد حرب التحرير العظيمة بطل مزيف وصارت المعارك في أدبياتهم مجرد تمثيلية متقنة

أعدها الإنجليز بالتعاون معه لتلميعه من أجل مهمة محددة وواضحة... هدم الخلافة...

هل يعني ذلك أن أتاتورك رجلا يستحق الإشادة؟ بالتأكيد لا يستحق فهو -وإن كان ليس الوحيد- من دق المسمار الأخير في نعش دولة الخلافة. لا يستحق الإشادة ولا الثناء أو المدح وإنما هو أهل لما يناله من لعنات، لكن الإنصاف يقتضي منا أن نفرق بموضوعية بين توجهاته الدينية ومهارته العسكرية، حين نتحدث عن الإسلام نصفه بما يستحقه وحين نتطرق إلى الإنجازات الحربية ننحي قناعاتنا وانحيازاتنا جانبا ونتحدث بصدق عما حدث، نؤكد أن مهارته لا تنفي ضلاله وأنه بالتأكيد يوجد على هذه الأرض العديد من الموهوبين والمهرة في شتى مجالات الحياة حتى ولو خالفونا العقيدة والدين.

***

يقال أن ابن سينا قد لُقب بأمير الأطباء أو أبو الطب الحديث، هكذا سماه الغربيون أنفسهم عرفانا منهم بما قدمه للبشرية من إنجازات لا في الطب فقط وإنما أيضا في الفلسفة والرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم، يقول أيضا العرب والمسلمون أنه كان ملحدا أو على أفضل حال شيعيا وفي كلتا الحالتين لا يأتي ذكره (كعالم) إلا وناله من التسفيه قدرا لا بأس به. هل يعني هذا أنه صحيح العقيدة؟ الإجابة هي لا، لكن علمه لا جدال فيه ونسبته للإسلام حتى وإن اختلت عقيدته تفيد الحضارة الإسلامية لا تضرها؛ فالبلجيكي جورج سارتون (مؤسس علم تاريخ العلوم) يقول مثلا أن ابن سينا هو أعظم علماء الإسلام.
يمكننا إذن الحديث عن الرئيس - كما يلقب - بإنصاف فنقول أن كتابه «القانون» قد ظل المرجع الأساسي للطب لمدة سبعة قرون كاملة وأنه أول من تحدث عن قانون الحركة الأول الذي صاغه نيوتن فيما بعد، ثم نقول بأن إنجازاته العلمية لا تمنع فساد عقيدته واعتلال فكره وفلسفته.

بهذا نكون قد أسسنا لمنهج علمي في التاريخ، منهج يتحلى بالموضوعية دون الحاجة لإضافة المزيد من المحسنات البديعية على أفعال من نحبهم ومن هم على شاكلتنا، ودون الحاجة لنزع إنجازات من يخالفوننا الفكر والمرجعية يصبح من السهل تقييم كل شخص بصورة مركبة لا أحادية، بصورة تسمح لنا أن نحكي التاريخ كما كان فنُقر بإنجازاته أو زلاته قبل أن نعرج على تقييمه أخلاقيا ودينيا، نتحدث عن أبو بكر الرازي وكتابه المميز الحاوي قبل أن نستطلع أراء بعض الفقهاء الذين كفروه، نذكر جابر بن حيان في زمرة الحديث عن علماء الإسلام وعن علم الكيمياء الذي كان هو أبرز رواده قبل أن نسرد أراء ابن تيمية عن الرجل ومثلما كان لزاما أن نذكر أخطاء المنصور بن أبي عامر جنبا إلى جنب مع إنجازاته العظيمة، وأن نرفع القداسة عن سليم الأول ونتقبل من يقول ببعض أخطائه، وجب علينا أن نذكر ذكاء الحجاج بن يوسف الثقفي مع ارتكبه من جرائم، ونتحدث عن علم نصير الدين الطوسي رغم تحالفه مع المغول، لنرسم بذلك لوحة حقيقية واقعية لمجرى التاريخ، نحاكم مشاهير المسلمين وننتقدهم أو نمدحهم ويبقى الإسلام محلقا في السماء لا يمس نقاءه شيئا، ويبقى التاريخ كما كان...

*****

مؤتة واليرموك

بقلم أيمن حويرة

1

جمادى الأولى العام الثامن من الهجرة، جيش المسلمين ينزل في معان ويعقد جلسة تشاور هامة لاتخاذ قرار بعد أن ورد إلى علمهم أن الروم قد حشدوا مائتي ألف جندي للمعركة، يتجاذبهم رأيان إما إعلام رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وطلب المدد، وإما العودة بالجيش إلى المدينة، يهب عبد الله بن رواحة، القائد الثالث في تسلسل القادة

كما أمر الرسول، واقفا ويلقي على مسامعهم خطبة قوية زلزلت مشاعرهم وأثنتهم عن التراجع أمام العدو.

«يا قوم والله إن التي تكرهون لَلَتِي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة».

هكذا قال عبد الله وهكذا انتفض المسلمون وانقضوا على عدوهم فقاتلوه بضراوة وأبلوا بلاء حسنا، إلا أن القائد الأول زيد بن حارثة استشهد في أثناء ذلك، تبعه جعفر بن أبي طالب حتى آلت الراية لعبد الله بن رواحة الذي بذل هو الآخر حياته في سبيل الله ونال الشهادة التي طلبها لكنه، وبما أنه كان آخر من أوصى بهم الرسول أميرا للجيش، فقد ترك الجيش بلا قائد في وسط معركة ربما لا قبل له بها

***

«ليس المهم أن نصل لنهاية الطريق ولكن أن نموت على الطريق»

***

2

جمادى الأولى العام الثالث عشر من الهجرة، أبو بكر الصديق يصدر أوامره لخالد بن الوليد بالانضمام لجيوش المسلمين الأربعة في الشام، وليصبح خالد قائدا لعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة. لم يكن خالد ليخذل الصديق حين اختاره لدعم الجيش الإسلامي في الشام وهو من أحرز انتصارات رائعة في العراق. صحيح أنه ذاهب لملاقاة أقوى امبراطورية على وجه الأرض حينها (الروم) لكنها ليست المرة الأولى، هو يعلم جيدا أنه لن يتخلى عن النصر كما اعتاد دوما، لن يألو جهدا في سبيل إلحاق الهزيمة بهم وهو ما كان.

انتصر المسلمون بقيادة خالد في أجنادين لكنهم انتظروا عامين ليطردوا الروم تماما من الشام في انتصار أسطوري خلده التاريخ في اليرموك، ذلك الذي شارك في كتابته كالعادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد.

***

3

جمادى الأولى العام الثامن من الهجرة، اليوم الثالث من معركة مؤتة وبعد أن استشهد القائد عبد الله بن رواحة، تشاور المسلمون فيمن يخلفه واستقروا على خالد بن الوليد. حوارا هامسا ربما دار في ثنايا عقله حينها: «ها هو الجيش ورغم ما يبليه من شجاعة نادرة إلا أن أننا فقدنا قادتنا الثلاثة الذين أمرهم رسول الله علينا، يقف ثلاثة آلاف بطل مسلم وجه لوجه أمام مئة ألف من الروم ومثلهم من العرب الداعمين للروم، أنى لجيشنا أن ينتصر؟ هل ننسحب؟». لكن نظرة إلى ما حوله من حماس تجعل من هذه الفكرة أمرا عسيرا، يتذكر كلمات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وهو يردد «فإما ظهور وإما شهادة» فيقع في حيرة بالغة. «وماذا بعد الشهادة؟ جنات عرضها كعرض السماوات والأرض؟ لكنها فقط لخالد ومن استشهد معه، ماذا عمن بقي من المسلمين؟ هل سيبقى أحدا من المسلمين إذا ما تسابق الجميع على الشهادة في معركة خاسرة؟ هل سيستمر الإسلام وينتشر إذا ما انتهى المسلمون؟»

***

«الهدف هو الوصول لنهاية الطريق، ربما لن نحزن لو متنا عليه ونحن نحاول لكننا بالتأكيد سنفرح كثيرا لو تعثرنا مئات المرات على الطريق ثم وصلنا لنهايته»

***

4

العام الخامس عشر من الهجرة، اليوم السادس منذ بدأت معركة اليرموك، عمرو بن العاص قائد الميمنة يهاجم ميسرة الروم، في الوقت نفسه الذي يشن فيه خالد هجوما على الخيالة بينما يشدد شرحبيل بن حسنة هجومه على قلب الجيش البيزنطي يتقهقر الروم وتفر الخيالة فيتحول خالد إلى نواة الجيش البيزنطي، وهم الأرمن، فيهزمهم ويجبرهم على الفرار باتجاه المعبر الضيق على النهر حيث مجموعة من فرسان المسلمين بانتظارهم. ملحمة عسكرية عبقرية كتبها خالد بن الوليد ونتج عنها انتصار من أعظم الانتصارات العسكرية الإسلامية وإنجاز لا يضاهيه إنجاز.

***

5

العام الحادي والعشرون من الهجرة، خالد بن الوليد يرقد على فراش الموت، يقضي لحظاته الأخيرة قبل أن تفيض الروح إلى بارئها، يجول بخاطره شريط حياته ومعاركه الحربية التي خاضها، آه يا أبا سليمان، تاريخ طويل زينته الانتصارات المتتالية وتوجه فتح العراق والشام وهزيمة الفرس والروم، تلوح له ذكرى عمرها ثلاثة عشر عاما، يتذكر مؤتة، تلك المعركة التي كان فيها الموت قاب قوسين أو أدنى منه، يتذكر كيف فكر حينها للحظات في استكمال مسيرة عبد الله بن رواحة والسعي للشهادة، ربما كان أفضل له حينها أن يموت شهيدا عن أن يموت على سريره اليوم كالبعير، لقد نال بن رواحة الشهادة بينما هو لم ينلها، تولى القيادة بعد استشهاده فقاتل والانسحاب نصب عينيه، أراد الحفاظ على الجيش بعدما علم أن معركته خاسرة، ادخر قواه لمعركة أخرى وقد جاءت هذه المعركة. فهل كان قرار الانسحاب سليما حينها أم الاستمرار وربما الهزيمة وفناء الجيش عن بكرة أبيه؟ يتذكر جيدا استنكار أهل المدينة لعودة الجيش هاربا وترديدهم «يا فرار فررتم في

سبيل الله»، لكنه أيضا يتذكر قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ليسوا بالفرار لكنهم الكرار إن شاء الله»، وها هو قد كر وانتصر وفتح البلاد ونشر الإسلام فأيهما كان خيرا، السعي للشهادة في مؤتة ونيل شرفها أم الانتصار في اليرموك؟

*****

الأندلس وجدلية الثنائيات

بقلم أيمن حويرة

جدلية عمرها أكثر من خمسة قرون، عمرها هو عمر مأساة أهلها الذين نصروا ثم قتل بعضهم وهجر الآخرون... جدلية لا يكف طرفاها عن استدعاء ما يدعم موقف كل منهما في زعمه أملا في الانتصار في معركة لا فائز أبدا فيها. طرفان خاسران حتى وإن اقتنص أحدهما نصرا على الورق في قضيتهما التاريخية.. قضية «الأندلس.. فتح أم احتلال».

جدلية ما حدث عام ٧١١م على يد طارق بن زياد ،وهل هو فتح أم احتلال، ترتبط ارتباطا وثيقا بما حدث عام ١٤٩٢ وما بعده وحتى قرار طرد الموريسكيين في بدايات القرن السابع عشر، هي قضية ثنائية، إما فتح/احتلال أو احتلال/استرداد، تتردد ثنائية فتح/احتلال في أدبيات العرب والمسلمون الذين كتبوا عن تاريخ الأندلس، بل وما زالت حتى اليوم هي الخطاب الأكثر شهرة على ألسنة المتعاطفين مع القضية الأندلسية، بينما يرفع الأسبان -أغلبهم- وغيرهم من غير المسلمين بل وبعض المسلمين شعار الاحتلال العربي للأندلس ليأتي مقرونا بعدها بحروب الاسترداد التي خاضوها -من وجهة نظرهم- لاسترداد أراضيهم المحتلة. والحقيقة أنه رغم ركاكة الطرح الأسباني ومنهجيته في نعت ما حدث في أوائل القرن الثامن الميلادي بالاحتلال، إلا أن غالبية الأطروحات المناظرة التي ساقها العرب أو المسلمون دائما ما يشوبها إما ضعف في الحجة أو خلل في المنهجية أو تخبط في الطرح أملا في

إرضاء الفريقين. يظهر ذلك جليا حين يتم مخاطبة غير المسلم بأدلة من الشرع والعقيدة الإسلامية أو يتم إضافة بعض الأحداث غير الحقيقية أو دحض الأحداث الحقيقية لدعم وجهة نظر ما. لكن الخلل الأكبر يتجلى حين يفتقد الطرح إلى أبجدياته وتظهر منهجية البحث قاصرة عن التعامل مع القضية بصورة تعالج كل الثغرات وتغطي كامل نقاط البحث. لذلك يبدو أن التبريرات التي يسوقها البعض على أن ما حدث ليس احتلالا وإنما فتحا غير مقنعة، أو ربما مقنعة لفئة دون غيرها، ذلك أنها صيغت جامدة لا مرونة فيه، وبالرغم من وجاهة بعضها إلا أنها تفتقد إلى بعض الحيوية التي تجعلها مناسبة لتبنيها من قبل الفريقين.

«جاء المسلمون لإنقاذ أهل الأندلس -حينها- من الظلم الواقع عليهم من القوط»، هذا هو الطرح الأكثر شهرة وتداولا بين المؤرخين لكنه الطرح الأكثر سهولة للرد عليه من قبل رافعي رايات احتلال/استرداد، وحجة هؤلاء أن من جاء لينقذ شعبا مظلوما لا ينبغي له أن يبقى ليحكم بل أن يرفع الظلم ثم يمضي من حيث جاء. يرد آخرون بأن من بقى من المسلمين لا يتجاوز بضعة وعشرين ألفا، أي أن المسلمين كانوا أقلية في التركيبة السكانية لأهل الأندلس حينها وأن أفواجا من السكان الأصليين قد دخلوا الإسلام طوعا، لكن الفريق المضاد يدلل على زيف هذا الكلام بسرد قصة تحول كاتدرائية قرطبة على عهد القوطيين إلى جامع في عهد الأمويين. عشرات من الأطروحات تتدثر بثوب المثالية فتفقد مصداقيتها وعفويتها يقابلها عشرات من الأطروحات المغرقة في السواد المغلف بالتضليل. وبين أولئك وهؤلاء تغيب الحقيقة.

هل كان فتح الأندلس فتحا حقا أم احتلال؟ سؤال لا يمكن الرد عليه إلا إذا اقترن بمعلومتين إضافيتين، من هو السائل ولماذا يسأل هذا السؤال؟ تبدو المعلومة الأولى أكثر سهولة في الحصول عليها، فإما أن يكون من طرح هذا السؤال هو فريق الفتح المؤمن بإسلام الأندلس أو

يكون من تساءل من فريق الاحتلال القانع بأسبانيتها، ذلك الفريق الذي يضم بين أعضائه مسلمين وأسبان وجب مخاطبة كل منهم بما يتناسب مع قناعاته وأفكاره وثقافته. تبدو المسألة أكثر صعوبة للإجابة عن السؤال الثاني، ما الغرض من تحديد ماهية هذا الحدث التاريخي؟ هل هو فتح أم احتلال؟ لو كنت إسبانيا متشددا فستبدو محاولة نعت ما حدث بالاحتلال مبررا كافيا لشن ما يسمى بحروب الاسترداد هؤلاء العرب جاءوا محتلين، حاربوا وانتصروا ثم حوربوا وهزموا وعادت الأرض لأصحابها على الجانب الآخر يبدو أن مسلمي فريق الاحتلال يدعمون هذه الفكرة حتى لا يصير هناك حاجة لطرح فكرة العودة، لو كان فتحا إسلاميا لكانت فكرة العودة واستعادة الأرض يوما ما حلما مشروعا للمسلمين، لذلك فاجتثاث الفكرة من جذورها هو الأنسب من وجهة نظرهم.

حتى تكتمل الصورة من الضروري توضيح الفارق بين الفتح والاحتلال والغزو، فالغزو هو القصد والطلب والسير إلى قتال الأعداء وهي لفظة محايدة لا تحمل في طياتها خيرا أو شرا، هذا الغزو يعقبه إما فتح (خيرا) أو احتلال (شرا)، هكذا يصبح واضحا لماذا يحاول الأسبان رفض كلمة «فتح» وإصرار الفريق الآخر عليها بالرغم من أن هذه الكلمة غير موجودة إلا في القواميس الإسلامية. وعليه فمحاولة إقناع الأسبان بكون ما حدث فتحا يأتي على رأس الأخطاء الجوهرية في دحض حجج الأسبان التي يسوقونها كمبرر لحروب الاسترداد، والأجدر أن يكون أساس الحوار هو أرضية مشتركة من القناعات وأهمها هذه التعريفات. لذلك فالأفضل التسليم بأن ما حدث كان غزوا بمفهوم هذا العصر وأن القاعدة حينها أن للجيوش الكلمة العليا تغير على جيرانها وتستولي على أراضيهم، فإما أن يقوم سكان هذه الأراضي بثورات لاحقة إذا ما جاء هؤلاء الغزاة بظلم وإما أن يتعايشوا معهم إذا ما حل العدل والرفاهية. وعليه فان ما أتاه المسلمون حينها من غزو للأندلس لا غبار عليه أبدا بمقاييس هذا الزمان وبعيدا عن البعد العقائدي، بل إن تكيف الشعب الأندلسي مع المسلمين وانصهارهم سويا

في بوتقة واحدة لهو أفضل رد يرد به على من يوحي بأن ما حدث كان احتلالا بمفهومه السيئ. الأكثر من ذلك أن الأسبان أنفسهم، وفي نفس عام تسلمهم لآخر معاقل المسلمين في الأندلس ١٤٩٢، قد انطلقوا بسفنهم يجوبون العالم من أجل غزو بقاع جديدة لم تطأها أقدامهم من قبل، ولأن كلمة احتلال لها سمعة سيئة ولأنها تستوجب منح من أحتل حق الاسترداد لاحقا، ولأن كلمة فتح هي كلمة إسلامية بحتة، فقد استطاعوا بعبقرية لافتة للأنظار أن يصوغوا مصطلحا جديدا ويسموا ما فعلوه في أمريكا «اكتشاف العالم الجديد» زاعمين بتسميتهم هذه أن هذا العالم كان أرضا خاوية تم استحداثها قبيل اكتشافها، متغاضين بذلك عن حقيقة أن هذه الأرض لها سكانها وحيواناتهم التي أغاروا عليها ونسفوها تماما كما تقول قواعد الاحتلال المثالية.

هذا إذن هو الاحتلال الحقيقي الذي يستوجب مقاومة واستردادا، هذه هي مجازر الإبادة الجماعية التي تعرض لها سكان هذا العالم - المدعو زورا جديدا - من هنود حمر وغيرهم، بل إن هذه المجازر لم تختلف في تفاصيلها كثيرا عما حدث على يد نفس المحتل الإسباني لأهل الأندلس المسلمين «الموريسكيين» منذ سلم بنو الأحمر غرناطة وحتى قرار الطرد الشهير بعدها بأكثر من مئة عام، تلك الجرائم التي ربما لو لم يرتكبها الأسبان لكان من الممكن تقبل حججهم وأطروحاتهم عن استردادهم لأراض يدعون إنها أرضهم، في الوقت الذي احتلوا فيه البرتغال دون وجه حق ودون مراعاة لحقوق البرتغاليين حينها في أرضهم، بل في الوقت الذي احتلت فيه الدانمارك للسويد عام ١٥٢٠ فيما عرف بحمام دم ستوكهولم ثم لم يلبث أهل السويد المظلومون أن حرروا أنفسهم ثم انطلقوا في أوروبا لغزو نصف أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومعها الدانمارك نفسها فيما عرف بحرب الثلاثين عاما!! هذه هي أوروبا إذن حينها، لا حقوق للشعوب ولا استرداد وإنما غزوات حربية بهدف السيطرة والاحتلال، بل والاجتثاث لاحقا، كما

كان يهدف الأسبان الكاثوليك كمثال مع البروتستانت.

يقول الأسبان أن قرار الطرد كان ضروريا، فالمسلمون رافضون تماما للانخراط في الحياة الاجتماعية الجديدة والانصهار في بوتقة المجتمع الإسباني عوضا عن نظيره الأندلسي، يعزي الأسبان ذلك لاختلاف العقيدة التي لم تسمح بأي محاولات للتعايش بينما يظهر زيف هذه الادعاءات بمجرد النظر لقرار التنصير المبكر جدا والصادر عن الملكة إيزابيلا بعد عقد واحد من سقوط غرناطة، بل ويتأكد ضعف هذه الحجة إذا ما تم مقارنة ذلك بما فعله شارل الخامس في صلح أوغسبورغ عام ١٥٥٥م حين أعطى للأمراء الألمان حرية اختيار ديانة ممالكهم وأعطى اللوثريين حق ممارسة طقوسهم الدينية. وبينما يبرر الأسبان طرد المسلمين بكونه مجرد رد على احتلالهم الأندلس قبل ثمانية قرون، يبرز تساؤل آخر يحتاج إلى إجابة وهو: لماذا طرد الأسبان اليهود أيضا!!!

الأمر يختلف تماما إذا ما نوقش من منظور المسلم المؤيد لاسترداد أسبانيا للأندلس، فهنا تعود كلمة الفتح للظهور في قواميس اللغة وتصبح أحد الأسس التي يمكن للنقاش أن يُبنى عليها. هذا الفتح الذي كان الوسيلة الوحيدة لنشر الإسلام في العصور السالفة، إذ لم يكن ممكنا حينها الدعوة للدين في الدول غير المسلمة دون أن يمس الدعاة بأذى؛ لهذا كان الفتح (الغزو) في أغلب الأحوال هو الخيار المتاح بعد عرض الخيارين الآخرين (الإسلام أو الجزية) على هذه الدول. لم يكن سبب الفتوحات الوحيد هو الدعوة وإنما كان هناك حاجة إلى حماية حدود الدولة الإسلامية من الإغارة عليها، وبالرغم من أن الأندلس لم تمتلك حدودا برية مع أراضي الدولة الإسلامية (الأموية)، وبالرغم من خطورة الإقدام على فتح هذه البلاد الوعرة التي تجاور أراضي الفرنجة ويفصلها عن آخر أراضي الإسلام بحرا إلا أن بريق نشر الدعوة كان محفزا لطارق بن زياد وقائده موسى بن نصير للسعي نحو تحقيق هذا الهدف.

إذن هل كان هذا فتحا بمقاييس الإسلام؟ يبدو أن الإجابة هي نعم، فالمسلمون انتهجوا منهج الإسلام في هذا الفتح بل وبعد الفتح، فلم يفسدوا في الأرض أو يظلموا سكان الأندلس الأصليين، بل على العكس تماما فقد أخرجوهم من غياهب الظلم الذي لاقوه من القوط إلى رحابة الإسلام، كانت مبادئ العدل هي العامل الأساسي في بناء الحضارة الأندلسية فهذا موسى بن ميمون القرطبي الطبيب اليهودي الشهير ينمو في هذه البيئة السمحة التي ينعتها البعض بالاحتلال، حتى قال حاييم الزعفراني اليهودي في كتابه ألف سنة من حياة اليهود في المغرب: «لقد عرفت اليهودية الأندلسية في مجموعها حياة أكثر رخاء، وأكثر اطمئنانًا، كما لم تعرفها في مكان آخر«

لماذا إذن يعارض بعض المسلمون هذا الطرح؟ لماذايظهرون تعاطفهم الصارخ مع الأسبان؟ بل لماذا يعقدون المقارنات الدائمة بين ما فعلته أسبانيا منذ خمسة قرون وما يفعله الفلسطينيون اليوم من مقاومة بغية استرداد أرضهم؟ فإما أن الأسبان محقون في حروبهم لاسترداد الأندلس وإما لا حق للفلسطينيون اليوم في أرضهم، فإسرائيل اليوم في احتلالها لفلسطين ما هي إلا العرب منذ ثلاثة عشر قرنا في غزوهم للأندلس كما يحلو لهم أن يزعموا!! الحقيقة أن السبب -ربما المنطقي- الوحيد لذلك هو الخوف من دعوات العودة والاسترداد الإسلامية، دعوات الجهاد ونعت أسبانيا بالأراضي المحتلة وغيرها هو ما يشغل بال هؤلاء المتعاطفين مع أبشع تصفية عرقية في التاريخ ويقض مضاجعهم خوفا من حرب استرداد إسلامية، يهابون مجرد التفكير في عودة الإسلام إلى إسبانيا حاكما لكنهم يتجاهلون أنهم بهذا يفرطون في حق شعب أبيد وهجر وسلبت ممتلكاته ولم ينل حتى كلمة اعتذار عما حل به، يتجاهلون أن الإسلام سوف يعود فاتحا مرة أخرى حتى ولو أبوا. سيعود دون سيف كما انتشر أول مرة. سيعود ليفتح هذه البلاد فكريا تماما كما فعل منذ قرون ، سيعود فاتحا لا محتلا ..

* * * * *

تاريخ منسي (إمارات أوروبا المسلمة)

بقلم: إبراهيم أحمد عيسى

إمارة باري

في عام ٨٢٧م، عبر القائد المسلم أبو عبد الله أسد بن الفرات، قاضي القيروان وتلميذ الإمام الكبير مالك بن أنس رحمه الله البحر من القيروان إلى صقلية فاتحا، ومنذ اللحظة التي وطأت فيها قدماه البر الصقلي بدأت رحلة المسلمين في جنوب إيطاليا، ولم تمض من السنوات إلا قليل لتصبح صقلية الجسر الحضاري الثاني بعد الأندلس، والذي امتد من العالم الإسلامي وحضارته الزاهرة إلى أوروبا في عصورها المظلمة، وساهمت صقلية بشكل كبير على مدى قرنين في النهضة الأوروبية التي انطلقت بذورها من إيطاليا.

وبعد أن استتب الأمر للمسلمين في كل من صقلية وكالابريا، اتجهت حملات الفتوحات إلى الجنوب الإيطالي أملًا في الوصول إلى روما يومًا ما، وكانت إحدى هذه الحملات إلى «باري» يقول ابن الأثير: «وبالمغرب أرضٌ تُعْرَف بالأرض الكبيرة، بينها وبين بَرْقَة مَسيرة خمسة عشر يومًا، وبها مدينة على ساحل البحر تُدْعَى بارة».

بعد فتح تارنتو عام ٨٤٧ م، قاد الأمير «خلفون البربري» وهذا اسمه كما ذكره البلاذري في كتابه فتوح البلدان إحدى التجمعات العربية والبربرية في مقاطعة (بوليا) واتجه ليحاصر مدينة (باري)، إلا أن فرص الهجوم ومحاولة الاستيلاء على المدينة المحصنة لم تفلح في بداية الأمر، ثم اشتدت وطأة الحصار فأخذت موارد المدينة المحاصرة في النفاذ، واشتدت وطأة الجوع والحرمان على الناس، وبطريق الصدفة يكتشف أحد جنود خلفون ثغرة في سور المدينة المحصن، فينزل بها مع مجموعة من جنوده ليباغتوا الجنود اللومبارديين، لتسفر المعارك عن تغلب خلفون وبث سيطرته على المدينة ليوقع بعد ذلك اتفاقية بينه وبين ممثلي الطائفة المسيحية يؤمن لهم فيها أنفسهم

وأموالهم، وأن يحتفظوا بشرعيتهم وقضاتهم، وأن يتمتعوا أحرارًا بشعائرهم الدينية، وأن يؤدوا بكل حرية طقوسهم، وأن تبقى كنائسهم حرمًا مصونة. وسارع خلفون بعدها إلى تقوية أسطول المسلمين والمباشرة بفتح المدن والإمارات التي كانت بجوار مدينة باري.

ومع فتح باري استطاع المسلمون فرض سيطرتهم على الجنوب الإيطالي إلا من «نابولي»، التي هرعت إلى محالفة الفاتحين بعدما وجدت نفسها وحيدة أمام قوات المسلمين التي كانت قد سيطرت منذ عام على مدينة «أوستيا»، والتي تبعد قرابة ٢٦ كيلومترًا عن روما، كانوا قد توغلوا حتى وصلوا إلى مركز مدينة روما ودخلوا كنيسة القديس بطرس وكنائس أخرى، إلا أنهم تراجعوا بعد أن أدركوا صعوبة دخول المدينة نتيجة تحصيناتها القوية وقد تحالف الأعداء فيما بينهم بوجه قوة الفتح الإسلامي الجديدة. في عام ٨٤٨م، تحول الجنوب الإيطالي إلى مسرح لحروب آلية مستمرة ما بين الإمارات الإيطالية والمدن المستقلة من جانب، وبين طموحات المسلمين في فتح باقي المدن، وكان على «باري» أن تقوى فهي الخط الأول للمواجهة.

قام خلفون البربري بعد الفتح بتوجيه رسائله لحكام المسلمين في جميع الأمصار ليزف لهم خبر الفتح فأرسل إلى صاحب مصر وإلى الخليفة في بغداد، ومنذ دخوله للمدينة اهتم بتوفير احتياجات أهل المدينة من المأكل والمشرب؛ فقام باستجلاب كثير من الغراس والمحاصيل كالقطن والأرز وقصب السكر والنخيل من صقلية، كما قام بتنظيم الري والصرف، واستجلاب الماء، ونشر النواعير المائية. حاول خلفون أن يصنع ربط بين العناصر الأربعة التي يتكون منها السكان، وهم العرب والبربر، والنصارى، واليهود، والتي كانت الإمارة تحرص منذ البداية على ضمان ولائهم، لم تلبث أن تحطمت، وخاصة بين العرب والبربر، فقتل الأمير خلفون في إحدى المكائد التي دُبرت له.

تولى مفرق بن سلام حكم الإمارة، ولم يعرف أحد كيفية وصوله إلى قيادة الحكم، إلا أنه اشتهر بالتقوى، فبنى أول جامع كبير في وسط

باري، والذي حول في نهاية الأمر إلى كنيسة ثم الكاتدرائية الحالية للمدينة. ولم يلبث أن تولى الحكم حتى بدأت البلدان المجاورة في الإغارة عليه، ليقوم بعدها بحملة واسعة لتأديبهم فضم إلى إمارته كلّا من «بنيفينتو» و»تليزي» وامارة (سبوليتو) و(ساليرنو)، وقد أتيحت له الفرصة في التوغل كيفما يشاء في إيطاليا وقد ثبت حكمه بعدد من الغزوات، والتقى عام ٨٥٥م بالمقاتلين اللومبارديين والصقالبة فهزمهم شر هزيمة. ووقعت أيدي جنوده على كثير من الغنائم كما أنه صالح في الوقت نفسه بعضًا من أمراء أعدائه على الجزية وأطلق أسرى المسلمين كما أصبحت إمارة باري في عهده مأوى للعديد من المسلمين الذين تكاثر عددهم في المناطق الجنوبية الإيطالية وأصبحت باري مركزا تجاريا ضخما على شواطئ البحر الأدرياتي. لكن نار الفتنة اشتعلت من جديد وكأن «فتنة العصبية الجاهلية لا يعرفها سوى المسلمين»، فنسوا عدوًا يترقب بهم، وقد تولى إشعال هذه الفتنة مجموعة من العرب وجماعة من البربر، أدت في نهاية الأمر إلى قتل الأمير (مفرق) من قبل البربر ونصبوا محله سودان الماوري.

منذ اليوم الأول حاول سودان أن يظهر عدالته بعدم التفريق بين العرب والبربر، فوزع المناصب الحساسة بالتساوي بين أطياف المجتمع، وعلى المستوى الخارجي شهد عهده أول هدنة عسكرية بينه وبين جيرانه من المسيحيين، فقام بخطوة إخلاء سبيل عدد من أسرى الحرب من إمارة «بنيفينتو» وعلى رأسهم أحد القادة الكبار، ثم بدأ بعد أن استتب له الأمر بالتفرغ لإمارة «نابولي»، والتي كانت قد نقضت العهد مع صقلية وأخواتها المسلمة من إمارات الجنوب الإيطالي فتوجه بجيش كبير من باري ليفتح «كابوا وكونزا ويبوريا» متوجهًا إلى مملكة نابولي، إلا أن انتشار مرض الكوليرا حال دون تواصل زحفه، وأثناء عودته إلى باري التحم بجيش من البندقية في معركة لم تشهد الأراضي الإيطالية مثلها منذ عصور. دارت رحاها بشدة، فتغلب «سودان» ورجاله في هذه المعركة التي أطلق الطليان عليها فيما بعد اسم

(الشرسة).

وكان لهذه المعركة أسوأ وقع في العالم المسيحي؛ إذ اهتزت لها البلاد الرومية بأسرها، وكان (سودان) قد ابتدأ حكمه بحسن السيرة وعدالته، كان انتصار المسلمين له أثر بالغ حتى أن اسم «سودان الماوري» راح يتنقل عبر القرى والمدن فبدأ الرهبان في نسج قصص خيالية عن شره وفضائحه وحبه للقتل من أجل بث روح الكره والبغض له في قلوب العامة من الإيطاليين. وقد كتب الأمير سودان عام ٨٦١م رسالة إلى الخليفة المتوكل في بغداد يطلب فيها تعيينه واليًا على إمارة «باري»، إلا أن الرد جاء بأن المتوكل قتل وتولى بعده المستنصر، فاستغل الأمير «سودان» هذه الاضطرابات ليعلن نفسه «سلطان باري» لتصبح إمارة باري المركز الذي تتوجه منه الحملات لفتح العديد من المدن.

وفي عام ٨٦٦م، قام الإمبراطور «لودفيك الثاني» بعقدتحالف بينه وبين أمير «بينيفينتو وسبوليتو ونابولي» ونصت قراراته بألا يركن أحدهم لجانب المسلمين ضد خصمه مرة أخرى. وفي العام نفسه قام الإمبراطور بشن حمله على قواعد المسلمين، ولكنه لم يستطع محاصرة «باري» لعدم امتلاكه أسطولا بحريًا قويًا، فعاد من حيث أتى ولكنه لم ييأس فقام بالاستعانة بجماعات من المسلمين الصقالبة وصربيا والقسطنطينية، فحاصرت هذه القوات (إمارة باري) لمدة أربع سنوات .

كان على «سودان» أن يقاوم فلما اشتد الحصار طلب العون من صقلية، إلا أن الإمدادات لم تصل، فأيقن أنه لا بد أن يعتمد على نفسه في الدفاع عن مصير إمارته. وبعد معارك ضارية أبدى فيها المسلمون بسالة نادرة في الدفاع عن مدينتهم، حتى جاء يوم الثاني من شهر فبراير عام ٨٧١م نجحت قوات التحالف الكبير أن تقتحم أسوار «باري» بعد أن انتشرت المجامعة والأمراض ونقص العتاد. فقام الإمبراطور لودفيك الثاني بقتل كل من في المدينة الذي كان قد أقسم على قتل كل مسلم فيها، ذبح الأسرى رجالا ونساءً وأطفالا، وتذكر بعض المصادر الإيطالية بأنه لم ينج من المسلمين حتى السلطان قتل في

المعركة الطاحنة التي حولت المدينة إلى خراب كبير. ومع سقوط باري العربية ذُثرت المعالم الحضارية الإسلامية بحقد كبير، ولم يبق منها سوى آثار ضئيلة، إلا أن بعض الآثار عميقة وتشكل قوة وضاءة في حياة أهل باري التي تعتبر اليوم العاصمة الإقليمية لمقاطعة بوليا، وهذه القوة تشاهد في تكوينها العنصري والثقافي في تقاليدها ولغتها.

*****

فرخشنيط، عصابات أم فاتحون

في عام ٨٩١ م نزل على شاطئ بروفانس –بجنوب فرنسا– عشرون بحارًا أندلسيًا كانت قد تحطمت سفينتهم بفعل عاصفة هوجاء لتلقي بهم الريح على ذلك الشاطئ في خليج القديس تروبزر. تسللوا وهم لا يعرفون بأي أرض هم، صعدوا على تلة حصينة مغطاة بأشجار كثيفة وتحوي آثار حصن قديم يُسمى «فراكسينيتوم». استقروا لبعض الوقت في ذلك الحصن الذي أسموه: «فرخشنيط» نسبة إلى نبات الدردار المنتشر بكثافة في تلك المنطقة، الشيء الذي جعل منها غابة حصينة. وما إن استتب لهم الأمر وأعادوا بناء الحصن حتى قاموا بغارة على إحدى القرى المجاورة في محاولة لاستكشاف المكان وصالوا وجالوا في الأنحاء، وبعد أن درسوا المنطقة جيدًا أرسلوا أحدهم إلى «الأندلس» برسالة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وعرضوا عليه الأمر وكيف وجدوا تلك الأرض وحال أهلها من اختلاف مع الأمراء والنبلاء المالكين لتلك القرى، فأوفد مع الرسول مائة من الرجال ليتحقق من الأخبار الواردة له من تلك الأراضي في بلاد بروفانس، ومن هنا بدأ مجد مدينة مسلمة أسسها المولودون الأندلسيون؛ مدينة حكمت جبال الألب وأجزاء من سويسرا. إنها إمارة «فرخشنيط» .

كانت تلك البداية لإحدى إمارات أوروبا المسلمة، إمارة خشاها الجميع وتوجست منها روما خيفة. لا يوجد في المراجع العربية الكثير عنها ولكن وجدت الكثير من الكتابات لرهبان تلك الأنحاء، كتابات ظلت

محفوظة بأديرة نائية تقص علينا كيف كان «سارازين» وهو لفظ أطلق على العرب لكونهم غالبًا سمر الألوان وقيل إنها محرفة عن «سرا كنو» التي هي المسلمون بلغة الروم، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن قيصر القسطنطينية سأل عنه: هل هو سراكنو؟ أي مسلم.

ويظهر جليًا في تلك الآثار والمخطوطات أن المسلمين لم يكن هدفهم سياسيًا أو امتدادًا جغرافيًا فقط، كانوا لصوصًا وقطاع طرق –هكذا تم وصفهم في المصادر الغربية– أما في المصادر العربية القليلة يذكر ويسجل ابن حوقل أن المنطقة كانت عامرة بمزارع المسلمين، الذين يرجع إليهم فضل العديد من الإبداعات في الزراعة والصيد في المنطقة. ويدل حطام السفن في المنطقة أن فرخشنيط ربما كانت مركزًا ذا شأن في التجارة مثلما كانت صاحبة الريادة في البحر بأسطولها القوي المدعوم من الأندلس. يذكر محرر يوميات دير «نوفاليز» الذي يقع على مقربة من بروفانس أن بدء الغارات للمسلمين على النواحي القريبة من مدينتهم كانت في عام ٩٠٦م وقد ذكر أنه تم اجتياح القرى من جماعات المسلمين وإخضاع أهلها للإمارة وقد روى على حد وصفه «جرائم ترتعد لها الفرائص وفظاعات ارتكبها المسلمون»، وبعد أن تم إخضاع كل القرى والمدن بين نهري البو والرون، توجه المسلمون لبناء أبراج تقع على الطرقات الرئيسية والمرتفعات المحيطة بها تمكنهم من رؤية الطرق لمسافات بعيدة وتكون أبراج إشارة ومراسلة بالنيران في أوقات كثيرة وبذلك أصبح المسلمون يتحكمون في طرق التجارة والحج من وإلى روما عبر مداخل جبال الألب.

وتذكر بعض الوثائق أن المسلمين قاموا بقطع الطرق على بعض الحجاج وفرضوا عليهم رسومًا لعبور الطريق، وفي عام ٩٢١م لم يكن هناك سوى طريق واحد فقط لا يخضع للمسلمين وهو معبر سان برنار، ذلك الطريق الضيق بين الجبال الشاهقة، ومما يذكر أيضًا في السجلات طلب ملك إنجلترا والدنمارك المسمى «كنوت» من رودولف ملك

«بروغند» أن يؤمن طريق سان برنار للحجاج الإنجليز مخافة من المسلمين المسيطرين على المنطقة. وقد كانت أوروبا وخاصة تلك المنطقة مجرد ممالك تتكون أحياناً من مدينة واحدة فقط. فلم يكونوا على قلب رجل واحد بل يقومون بالإغارة والفتك ببعضهم البعض مما سهل للمسلمين أن ينزلوا للوادي الخصيب في سان برنار ويسيطرون عليه بسهولة ويقيمون عليه أبراجهم القوية التي كانت تحوي خزائن الأسلاب التي نقلت بعد ذلك إلى فرخشنيط، ومنها إلى ميناء بلنسية في الأندلس ثم أودعت في خزائن قرطبة.

مع مرور الوقت استطاع المسلمون بسط نفوذهم حتى بحيرة «جنيف» في سويسرا وأصبحت معابر وطرق جبال الألب الشرقية والغربية أراضي تابعة لإمارة فرخشنيط التي يهابها الجميع. وكالعادة بدأت الإشاعات تنتشر عن هؤلاء السارازين الذين يفتكون بالحجاج والقرى. ومع حلول عام ٩٤٠م أصبحت سويسرا الألمانية والتي تقع بها مدينة «كور» والتي تحتفظ الآن بأغلب وثائق تلك الحقبة في كاتدرائيتها، أصبحت أراضي تابعة للمسلمين الذين أرعبوا أوروبا وصاروا مصدر تهديد رغم قلة أعدادهم. ومما هو ثابت ما فعله أمير سويسرا الألمانية «هرمان» بطلب تعويض من الإمبراطور المقدس «أوتو» عن الأضرار التي تسبب بها غزو «كويدلونبرغ»، أي أن المسلمين وصلوا إلى قلب أوروبا وساروا يعرفون دروب الجبال ومسالكها.

بعد أن قويت شوكة المسلمين وأصبحوا مصدر تهديد لكل أوروبا كان على أحدهم أن يتصدى لهجمات تلك العصابات كما يصفونهم، فقام الكونت «هوجو» صاحب بروفانس بالتصدي لهم وطلب المدد من القسطنطينية، وبالفعل وصلته السفن ذات النيران الإغريقية والتي هجمت على ميناء «فرخشنيط» ودمرت أسطولها بينما قام هو بحصار المدينة وقامت معارك شرسة وكاد أن يظفر بتلك الحرب ويقضي على المسلمين، لكن جاءته الأخبار أن الكونت برنغار يسعى لدخول

«لومبارديا» ويسلب الملك من تحت قدميه فعاد وترك الحصار وعاهد المسلمين الذين أصبحوا حلفاءه بعد تلك الواقعة. وكانت المعاهدة تنص على تأمين المسلمين لجبال الألب وإبقاء نفوذهم على ما كان لهم، على أن يصدوا أي هجوم محتمل عليه يأتي عبر الجبال.

وبذلك استطاع المسلمون أن يعيدوا تحصيناتهم مرة أخرى ويعالجوا ما كان في إمارتهم من ثغرات. وبقي الحال كما هو عليه لفترة كبيرة من الزمن، وكانت الطامة الكبرى للإمارة حين أغاروا على ركب رجل دين من أكبر رجال عصره، القديس مايولوس، وكان يقود قافلة كبيرة من الحجاج تعبر ممر سان برنار، فهاجمهم العرب وأخذوهم سبايا ونهبوا كل ممتلكاتهم. وتستفيض القصص لهذ كرامات مايولوس، التي أهلته ليرسَم قديسًا لاحقًا. ولم يطلقوا سراحهم حتى حصلوا على فدية كبيرة. وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفوس الأوروبيين، ودفعت الملك وليام الأول حفيد هوجو من بروڤانس لحشد جيوش أوروبا والاتجاه لفرخشنيط. وتلاقى الجمعان في «معركة تورتون» والتي انهزم فيها جيش المسلمين واجتاحت القوات المدينة التي تحولت إلى ركام ولم يبق سوى آثار ضئيلة منها.

لم تحظ فرخشنيط بأهمية كبرى في كتب التاريخ الإسلامي ولم يذكرها المؤرخون العرب بشكل مفصل بل تجاهلوها مع أنها تعتبر فتحًا إسلاميًا في بلاد الغال الأول (فرنسا)؛ ربما لانشغالهم بتدوين الثورات في الأندلس منذ دخول المسلمين فيها حتى خروجهم منها، وانشغال الحكام بقمع الثورات المتتالية وكفاحهم للحفاظ على دولتهم، وربما اعتبروها حملة متواضعة مقارنة بحملات وفتوحات إسلامية أخرى. لكن أكثر من تحدث عنها وبشكل تفصيلي هو «**liudprand**» رجل دين من إيطاليا قام بتدوين هذه الحملة وقت حدوثها في القرن١٠، والتي اعتبرها بعض المؤرخين الأوروبيين غارة من غارات القراصنة .

تبقّى من إمارة فرخشنيط بعض أسماء المدن والطرقات من بازل السويسرية إلى شاطئ فرنسا الجنوبي فنجد: «الماجل» وهي مدينة

صغيرة قرب سويسرا الإيطالية، «المشابل» وهي قمم جبلية بجبال الألب، «وادي أنزه» وكما ينطق بالألمانية **Anzathale** وهو وادي عنزة. كما وجد بعض المصكوكات من النقود الفضية والتي تحوي كلمات عربية وبعض الأقمشة المطرزة بآيات من القرآن الكريم والتي تُحفظ بعناية في دير كور وخزائن دير سانت جيرمان. وكما هو الحال يحتفظ المنتصر بجزء من غنائمه كما يسجل فظائع المهزوم وكيف كان السبيل للقضاء عليه. السؤال الذي يبقى حائرًا.. هل كانت فرخشنيط مجرد عصابات؟ أم إمارة إسلامية دان لها الجنوب الأوروبي منذ ٨٨١م حتى عام ٩٧٤م؟

تذكر انك حملت كتاب التاريخ كما كان حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك

*****

إقريطش إمارة المطرودين

في حقبة من الزمن كان يحكم العالم القديم إمبراطوريتان «البيزنطية» آخر الإمبراطوريات القديمة و»دولة الخلافة الإسلامية» التي سرعان ما بسطت نفوذها على شواطئ وجزر البحر المتوسط، وكان من بين الجزر المتصارع عليها هي «إقريطش» أو كريت وهي أكبر الجزر اليونانية وخامس أكبر جزيرة بالبحر المتوسط. حاول المسلمون فتحها مرات عديدة في عهد الأمويين ومن خلفهم العباسيين ولكن كل المحاولات باءت بالفشل. فقد كانت الجزيرة مركزًا هامًا للبيزنطيين لوجودها على مشارف بحر إيجة الذي هو المدخل للقسطنطينية؛ مما جعلها ذات أهمية خاصة للبيزنطيين الذين يحكمونها.

سنترك «إقريطش» تحت الحكم البيزنطي قليلًا ونذهب لمكان بعيد،

هناك في قرطبة عاصمة الأمويين في الأندلس وبالتحديد في ١٣ رمضان عام ٢٠٢ هـ الموافق ٢٥ مارس من العام ٨١٨ م، حيث قامت ثورة الربض على «الحكم بن هشام» أمير الأندلس الذي ساءت العلاقة بينه وبين الفقهاء ورجال الدين لانغماسه في اللهو، فراحوا يتناولون لهوه في خطبهم ويعرضون فسقه على الناس في المساجد، وصاروا يلقبونه بالمخمور ويحرضون الناس على عزله، حتى ثار الناس وقاموا عليه فلم يكن منه سوى أن قاتلهم وغلبهم وأنزل بهم من العذاب صنوفًا فافترقوا وانهزموا أمام قواته، فصادر ممتلكاتهم وأحرق الديار وهدم المساجد الخاصة بهم. وأصدر قرارًا بطردهم وتهجيرهم؛ فرحل بعضهم إلى فاس بالمغرب أما أكثرهم فذهبوا جماعة إلى مصر وبالتحديد الإسكندرية حيث تبدأ قصة إقريطش من هناك.

كانت الإسكندرية في ذلك الوقت تابعة للخلافة العباسية ومركزًا قويًا للتجارة والتواصل البحري مع العالم، ولكن أنهكتها اضطرابات الأمين والمأمون وصراعهم على السلطة؛ مما جعل الفرصة سانحة للأندلسيين المطرودين بالاستقلال والسيطرة على الإسكندرية لأكثر من خمس سنوات. ولكن «عبد الله بن طاهر» والي مصر وصاحب المأمون زحف إليهم بجيش جرار وحاصر الإسكندرية في عام ٢١٢ هـ، فطلبوا الأمان على أن يسلموا المدينة، فطالبهم بالخروج عن كل أراضي الدولة العباسية وعدم العودة مرة أخرى، لم يكن أمامهم سوى البحر مرة أخرى وكأن القدر حتم عليهم الرحيل دومًا، مطرودون من ديارهم في الأندلس والآن مطرودون من مستقرهم في الإسكندرية.

حمل البحر أربعين سفينة تضم الأندلسيين، وفي السفينة الرئيسية أعلن زعيمهم أبو حفص عمر البلوطي عن وجهتهم.. كريت التابعة للدولة البيزنطية. رست سفنهم في خليج سودا عام «٢١٢ هـ-٨٢٥ م» ونزلوا إلى الجزيرة وغلبوا الحامية البيزنطية وأسسوا قاعدة كبيرة أحاطوها بخندق كبير، وأسموها الخندق أو كما يطلق عليها الآن «كانديا أو كندية» وهو اسمها الحالي. لم يكن هناك مقاومة من قبل

سكان الجزيرة الأصليين، فقد وجدوا فيهم مخلصين من البيزنطيين الذين كان ظلمهم قد وصل مداه فقد كانوا يفرضون نظامًا ضريبيًا قاسيًا على أهل الجزيرة الذين رحبوا بالفاتحين المختلفين كليًا عن أولئك اليونانيين المتعاليين والذين يعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية، كما حدثت ألفة بينهم وبين الأندلسيين حينما رأوهم يحترمون ديانتهم ولا يتحدثون عن -المسيح عيسى بن مريم- إلا بكل احترام ودخل جمع غفير منهم في الإسلام وتزاوجوا مع الفاتحين. كما أسقطت الضرائب التي كانوا يؤدونها للبيزنطيين ليبدأ عصر جديد على جزيرة «كريت» عصر إقريطش إمارة المسلمين البحرية.

ازداد الأندلسيون قوة حين لحق بهم بعض من بنىوطنهم ونشأت دولة أبي حفص الذي عرفه التاريخ البيزنطي باسم Apovapso « بوخابس». وصارت جزيرة كريت منذ ذلك الوقت قاعدة بحرية إسلامية هامة ومصدر تهديد مستمر لسواحل الدولة البيزنطية، حيث كان أسطول أقريطش يغير على أراضي البيزنطيين وجزرهم في بحر إيجة؛ مما أدى لوقوع اضطرابات اقتصادية وسياسية بالإمبراطورية العجوز. حاول البيزنطيون استعادة الجزيرة مرات عديدة وجمعوا بحارة ومحاربين من شتى أنحاء أوروبا ولكن دون جدوى، فإقريطش أصبحت عصية بفضل الإمدادات العسكرية التي كانت تقدمها مصر والشام للجزيرة المجاهدة باعتبارها أرض رباط أمام العدو البيزنطي، مما جعل الأندلسيين في قمة نشاطهم العسكري البحري بعد ولائهم للدولة العباسية، والتي جعلت من إقريطش جزءًا من التقسيم الإدراي التابع لإقليم مصر التي تتولى تزويدهم بالسلاح والمعدات، كما كانت دار صناعة السفن في دمياط تزودهم بكل متطلبات صناعة السفن والتي بُني لها مرفأ خاص في إقريطش لجودة أخشاب الجزيرة. وفي المقابل تنقل بضائع العسل والجبن والأخشاب لمصر والشامح مما جعل الجزيرة تنمو اقتصاديًا.

حاول الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني ومن أتى بعده أن

يستردوا الجزيرة من المسلمين فكانت تجمع الأساطيل المحملة بالجنود ويتم الإنزال للجزيرة ليصبحوا لقمة سائغة بين فكي الأندلسيين المدافعين عن الجزيرة. فلم يسلم أحد من القتل وتعود السفن الباقية خاوية إلا من طاقمها.

لم يكن الأباطرة البيزنطيون يهتمون لاستعادة الجزيرة فحسب، بل أيضًا لحماية سائر جزر بحر الأرخبيل الذي كان تحت سيطرة سفن المسلمين الذين سيطروا على بعض الجزر الصغيرة وجعلوا منها مواقع قرصنة على السفن المارة من هناك، وبين الحين والآخر حاولت بعض السفن البيزنطية أن تهاجم سواحل إقريطش حتى إن تلك المحاولات استهدفت ديرًا للرهبان النصارى والذي اعتبرهم المهاجمون خونة وعملاء للمسلمين. وهكذا استمر الوضع لأكثر من مئة وخمسين عامًا، باءت كل محاولات البيزنطيين بالفشل خسروا آلاف الجنود ومئات السفن في حربهم ضد «إقريطش» التي صارت عصية على العدوان. ويذكر أن ثيوفيلوس الإمبراطور البيزنطي أرسل سفارة إلى عبد الرحمن الثاني في قرطبة، طالبًا منه العون في محاربة الأندلسيين المنفيين ولكن ذلك الأخير لم يعط الأمر أهمية ولم يقم بأي فعل تجاه أبناء دينه حتى وإن كانوا مطرودين من الأندلس.

في عام ٩٥٦ م، خرج من السواحل البيزنطية أسطول ضخم ليس له مثيل، ٢٠٠٠ سفينة حربية و١٣٦٠ سفينة مؤن وإمداد، كان ذلك بإيعاز من الإمبراطور برنجاس الذي قرر أن يعيد هيبة الدولة البيزنطية ومحاربة المسلمين وكان عليه أن يبدأ بإقريطش. أرسلت بعض القطع الحربية لتمنع أي مساعدة تأتي من الشام أو مصر أو حتى الأندلس، كان عليهم إيقاف أو تعطيل المساعدة القادمة للجزيرة التي يستعد القائد «نقفور البيزنطي» لحصارها. أرسل نقفور فرقة استكشاف بقيادة مساعده باستيلاس الذي كان من أمهر القادة العسكريين البيزنطيين، وما إن نزل للجزيرة حتى مُني بالهزيمة الساحقة ولم ينجوا وظن أهل إقريطش أنها حملة أخرى باءت بالفشل فانصرفوا إلى

«الخندق» وعادت الحياة إلى طبيعتها، ولكن الأمر لم يكن مجرد حملة فاشلة فقد كانت طليعة الزحف البيزنطي، نزل نقفور على حين غرة من أهل الجزيرة وأقام معسكره وأرسل جواسيسه للمدن والقرى يطلبون العون من نصارى الجزيرة ووعدهم بالنفوذ والسطوة إن آل إليه أمر الجزيرة وبالفعل راحل بعض الخونة في إحراق مزارع الفواكه وقطع أشجار النخيل وإثارة الفوضى في البلاد. وفي ذلك الوقت ظهرت في الأفق سفن البيزنطيين تحيط بالجزيرة من كل جوانبها، فتحصن المسلمون بمدينتهم «الخندق» والتي كانت حصينة للغاية فهي عاصمة إقريطش وحصنها الآمن ومفتاح الجزيرة كلها. اشتد الحصار على المسلمين فأرسل أميرهم «عبد العزيز بن عمر بن شعيب» في طلب المساعدة من الفاطميين بأفريقية والخليفة الأموي بالأندلس «عبد الرحمن الناصر» فأرسل عبد الرحمن الناصر مبعوثين للجزيرة مع بعض المؤن استطاع بفضلها أن يطول صمودهم. كان من الصعب تقديم مساعدات للمحاصرين بالخندق، ولكنهم لم ييأسوا.

خمس سنوات من الحصار تخللتها اشتباكات عديدة بين الفريقين، حتى جاء الفاطميون بالمدد الذي استطاع اختراق الحصار ونزلوا أرض الجزيرة لينضم لهم أهل إقريطش ويتوجهون مباشرة إلى معسكر البيزنطيين، حيث قامت أشرس المعارك ولكن النصر انحاز للبيزنطيين الذي بلغت بهم الهمجية أن قطعوا أجساد القتلى من المسلمين إلى أشلاء راحوا يقذفون بها الخندق بجانب قذائف المنجنيق التي أحدثت خللًا وثغرات بأبراج المدينة، والتي كان تحتها فرق من الحفارين وصلوا لها عبر الأنفاق فسقطت الأبراج وسقطت المدينة، ليدخل الجند البيزنطي الذي بلغت بهم الهمجية أن قطعوا أجساد القتلى من المسلمين إلى أشلاء راحوا يقذفون بها الخندق بجانب قذائف المنجنيق التي أحدثت خللًا وثغرات بأبراج المدينة، والتي كان تحتها فرق من الحفارين وصلوا لها عبر الأنفاق فسقطت الأبراج وسقطت المدينة، ليدخل الجند البيزنطي ويقومون بمذبحة بشعة بحق أهلها وسلبوا الأموال ودنسوا المساجد، فقدمت وفود المدن والقرى الأخرى تطلب

الأمان.

ومن نتائج سقوط كريت أن ساد الاضطهاد الدينيللمسلمين بالجزيرة، وفي القرن السابع الهجري اشترت جمهورية البندقية جزيرة كريت، وحكم البنادقة الجزيرة حكمًا استبداديًا وحاولوا نشر المذهب الكاثوليكي بين سكان الجزيرة، وكان أهلها يعتنقون المذهب الأرثوذكسي فهاجر الكثير من أهل الجزيرة إلى البلاد الإسلامية، واعتنق الكثير منهم الإسلام. واستنجد أهل الجزيرة بالأتراك العثمانيين لتخليصهم من حكم البنادقة، فأرسل العثمانيون حملة لفتح كريت في سنة (١٠٨٠هـ – ١٦٦٩م) وعاد الحكم الإسلامي لجزيرة كريت مرة ثانية، وعاد المذهب الأرثوذكسي للجزيرة، وساد التسامح الديني في الجزيرة، وأمام تسامح المسلمين اعتنق نصف سكان جزيرة كريت الإسلام، وانتشر في جميع أنحاء كريت في ظل الحكم التركي، ولم يحاول الأتراك تغيير لغة الجزيرة أو التدخل في دين أهلها. وتبقى أرض كريت هي الأرض الوحيدة التي احتفظت بجثامين المطرودين الأندلسيين. وتبقى بعض آثارهم شاهدة على تاريخ أمة حكمت الجزيرة بالعدل والرحمة.

*****

ومضات وشخصيات

أبو بكر الرازي، جالينوس العرب

بقلم نهى عودة

«فأما حبي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني، وإني لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا مكبًا عليه، حتى إني متى علمت أن كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه لم ألتفت إلى عمل آخر ولوكان ذلك على ضرر عظيم دون أن آتي الكتاب وأعرف ما عند الرجل، وأنه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في

عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة، وما زلت أعمل مواصلًا الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث عليّ فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا من القراءة والكتابة، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي فأستعين دائمًا بمن يقرأ ويكتب لي».

هكذا يتحدث الرازي ويصف في كلمات مقتضبة مدى شغفه بالعلم. ويعتبر المؤرخون المسلمون أبو بكر الرازي هو أبو الطب العربي ومنحوه لقب «جالينوس العرب»، بينما يعتبره المستشرقون ومؤرخو الغرب حجة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر كما يعدونه أعظم أطباء القرون الوسطى. قال عنه ابن النديم صاحب الفهرست: «كان الرازي أوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لا سيما الطب»... ولد الرازي في مدينة الري وتوفي في القرن العاشر الميلادي بعد أن زاول مهنة الطب في بغداد خمسين سنة، حيث نبغ في زمن الخلافة العباسية وبرعايتها حيث ضمه الخليفة العباسي المعتضد في مجلسه المكون من العلماء والحكماء وجعله مستشارًا له في الأمور الطبية. ولعل أبرز استشارة قدمها للخليفة هي اختياره لموقع المشفى الضخم في بغداد والذي عرف ب(البيمارستان العضدي) ولذلك قصة طريفة؛ فحينما وقع عليه اختيار الخليفة لهذه المهمة أمر بإعداد قطع من اللحم الطازج في عدة أماكن من مدينة بغداد، وقد لاحظ أن الفساد قد أسرع إلى بعضها وبقيت قطع أخرى لم يسرع إليها الفساد، فاختار مكانها لبناء البيمارستان. ولما انتهى بناء البيمارستان أراد الخليفة وضع مشرفين عليها فعين الرازي مديرهم بعد أن تم اختياره من وسط مائة طبيب، وهنا إشارة بليغة برغم ما يثار من جدال حول عقيدة الرازي لا يمكن حسمه إلا أننا نجد هنا أن المناصب في الدولة الإسلامية كانت تمنح لمن يستحقها، وأن كل نابغة قد وجد له موضعًا ورعاية في كنف هذه الدولة العظيمة.

كان أهم ما يميز الرازي أنه نابغة في علوم الطب والصيدلة والكيمياء مجتمعة مما أفرز شخصية فريدة ومميزة، وكان في سعي دائم وراء

المعرفة، باحثًا عنها في صفحات الكتب وعلى أسرة المرضى وفي تجاربه الكيميائية، ولم يكن يسلم بآراء السابقين مهما كانت عظمتهم إلا بعد أن يمتحن هذه الآراء ويخضعها للتجربة، وكانت لهذه الجرأة الفضل في اكتشاف العديد من الأخطاء حتى في كتب جالينوس نفسه والذي كانت كتبه تعد أعظم المراجع في علوم الطب، وكان لا يسمح لمرضاه بتناول العقاقير إلا بعد قيامه بتجربتها على الحيوان. وقد ذاع صيته فكان المرضى يأتون من الهند والسند والصين وبلاد الإفرنج إلى البيمارستان العضدي الذي يديره بعد أن ترامى إلى مسامعهم أخباره التي تتحدث عن طريقته في الدقة وتحري احوال المرضى.

ويعتبرالرّازي أوّل مَن كتب ومَيّز بين مرضي الحصبة والجدري وذلك في كتابه «المنصوري» الذي ألفه في القرن العاشر الميلادي، وذكر فيه إنّهما ينتقلان بالعدوى، وتمت ترجمة الكتاب إلى اللاتينية وقام الطبيب ريتشارد مير بنشر الترجمة كاملة في كتابه في عام ١٧٤٧ م نظرا لأهميتها، أي ان مخطوطة الرازي ظلت تترجم وتستخدم لأغراض علمية حتى بعد مرور ثمانمئة سنة على كتابتها.

أما أخلاقه الرفيعة فقد جعلته ينصف جالينوس في كتابه هذا حيث أشار إلى أنه قد سبقه في التنويه عن مرض الجدري، وذلك على النقيض تماما مما اتصف به علماء أوروبا من إنكار لفضل المسلمين والعرب في العلوم المختلفة فضلا عن سرقة اكتشافاتهم ونسبتها لأنفسهم. وهو أول من رصد أن استخدام الموسيقا أو الأصوات الهادئة تعد لونًا من ألوان العلاج لدى بعض المرضى؛ وهذا ما أكدته الأبحاث العلمية الحديثة بعد قرونًا عدة من استنتاج الرازي، فقد ثبت أن الاستماع إلي صوت خرير الماء أو حفيف الأشجار أو صوت المطر أو شلالات المياه بجانب بعض المؤثرات الموسيقية يكون لها تأثيرات إيجابية علي أذن المريض، وقدرة هائلة علي إشاعة الهدوء النفسي وزيادة قوة تركيز الشخص، وقدرته على التأمل، وعلاج أمراض التشتت الذهني. وهو من أوائل من أشاروا إلى أثر الضوء في حدقة العين وأنه يساعد على اتساعها ليلًا وانكماشها نهارًا، وقد استغل أيضا

هذا الاكتشاف في القيام ببعض البحوث على الأعصاب، وكان من أوائل من تنبهوا إلى العدوى الوراثية، وقد كتب عن واجبات الطبيب وتسببت دقته في نبوغ الفحص الطبي نبوغا منقطع النظير في زمانه لما أولاه من اهتمام بالملاحظات السريرية وهي دراسة سير المريض وتتبع حالاته خطوة بخطوة. وهو أول من استخدم مركبات الرصاص في صنع المراهم، وأول من استعمل الملينات الطبية، وأول من توصل إلى استخدام الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في خياطة الجروح المفتوحة عقب الانتهاء من العمليات الجراحية؛ وقد شرح الرازي ذلك بقوله «إن الخيوط المصنوعة من الأمعاء يمتصها الجسم وتصير جزء منه». وهو أول من قام بمعالجة بعض أنواع الحمى بالماء البارد واستخدام الكحول للتطهير فسبق بذلك أطباء العصر الحديث. ومن فيض أعماله أنه خرج بنتائج حول مرض الربو الناتج عن الحساسية، ومصدر حمى القش، كما خلص إلى النظرية القائلة بأن الحمى هي آلية الدفاع الطبيعية للجسم، ومن فيض أعماله أنه خرج بنتائج حول مرض الربو الناتج عن الحساسية، ومصدر حمى القش، كما خلص إلى النظرية القائلة بأن الحمى هي آلية الدفاع الطبيعية للجسم، ومن أهم ما وقف عليه الرازي التلميحات الأولى حول الربط بن العامل النفسي وصحة المريض، وكان يعتقد بأنه لابد للطبيب أن يكون طبيبا للروح قبل أن يكون طبيبا للجسد فيقول: «على الطبيب أن يوهم مريضه بالصحة ويرجيه بها وإن لم يثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس». وقد حمله ذلك إلى وضع قانون للطب الروحاني وهو ما يعرف اليوم بالعلاج النفسي.

وتعد مؤلفات الرازي تراثا عربيًا خالدًا في عالم الطب والكيمياء حيث وصلت مؤلفاته إلى ما يقرب من مائتي كتاب ورسالة ويعد من أهمها كتاب «الشكوك» وراجع فيه بعض الآراء الخاصة بجالينوس وصححها، وكتاب «الحاوي» وجمع فيه صناعة الطب، وكتاب «المنصوري» والذي طُبع مرارًا وتكرارا في أوروبا إذ كان يشكل أعظم المراجع مع قانون ابن سينا التي يعتمد عليها في مدارس الطب الأوروبية؛ وفيه يتناول

وصفًا دقيقًا لتشريح الجسم وقوى الأغذية والأدوية وصناعة الجبائر، وتحدث عن الحميات والسموم والجراحات والقروح وغير ذلك، وله أيضا كتاب «منافع الأغذية» وفيه يتحدث عن حفظ الصحة من خلال التحكم بالغذاء الذي يتناوله الإنسان، كما يحدد لأصحاب الأمراض ما ينفعهم وما يضرهم من الغذاء ويتحدث أيضا عن مخاطر المشروبات المسكرة. أما الكتاب الذي كان يحمل الحس الطريف والإنساني في عنوانه ومحتواه فهو كتاب «من لا يحضره الطبيب» وقد ألفه الرازي قصدًا ليسدي به خدمة إلى الفقراء الذين لا يستطيعون إحضار الأطباء لفحصهم ومعالجتهم، وقد عرف هذا الكتاب باسم «كتاب طب الفقراء» ويعد أول كتيب طبي أعد للعامة. ومن شدة اهتمامه بالأخلاق الحميدة ألف كتابًا خاصًا بهذا الأمر سماه «أخلاق الطبيب»، يشرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب والطبيب، وضمَّنه كذلك بعض النصائح للمرض في تعاملهم مع الأطباء، وله آراء عديدة في تفضيله للطب البديل بالغذاء والأعشاب عن غيره فيقول: «إذا استطاع الطبيب أن يداوي بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة».

ولولا عظمة الرازي وذيع صيته وحفظ مؤلفاته لحرص الغرب على إنكار فضله، إلا أنه احتفظ بمكان له في جامعة بريستون الأمريكية التي ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي. ولولا تأييد ودعم الخلفاء المسلمين ورعايتهم للعلماء، ووقوفهم على أهمية علوم الطب ودراستها وإنشاء المستشفيات بدلًا من العلاج بالسحر والشعوذة لما كان للرازي وغيره من الأطباء تراثًا زاخرا احتلت به الحضارة الإسلامية موقع الريادة ذات يوم.

ويذكر المؤرخون أن الرازي كان نحيلًا كبير الرأس ذولحية رمادية كريمًا، متفضلًا، متواضعًا، طيب القلب، ويولي مرضاه اهتمامًا فائقًا، وكان بارًا بالناس رؤوفًا بالفقراء فكان يعالجهم ويمنحهم الدواء من ماله الخاص حتى انتشرت شائعة أنه لحذقه الكيمياء قد نجح في

إيجاد طريقة لتحويل المعادن الأساسية إلى ذهب، ونسبوا غلى ذلك سر ثرائه وإنفاقه النقود على الناس دون حساب، الأمر الذي وصل إلى أسماع الرازي فضحك منه ووصفه بالمستحيل! وكان آخر ما كتبه في سيرته الفلسفية : «إذا كان الناس لا يستنقصونني في الجزء العلمي فأولى الأشياء أن ينتفعوا بعلمي ولا يلتفتوا إلى سيرتي»..

*****

أسطورة صلاح الدين

بقلم نهى عودة

جسد صلاح الدين المعنى الحقيقي لنبل وشرف الفروسية الإسلامية وتسببت أخلاقة الفريدة أن يكون مثار انبهار المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء، وقد مثّل بجدارة الشخصية الكاريزمية الرئيسية في تاريخ تلك المرحلة المؤثرة والحاسمة من تاريخ العلاقات بين الإسلام والمسيحية والتي عرفت بالحروب الصليبية. وقد أعجب به مؤرخو الصليبيين والبيزنطيين بصورة لم تتأت لأي قائد مسلم سابق، وأشاروا إلى أن صلاح الدين كان يمثل نوع من القيادة المتميزة بمواهب شخصية أشبه بالسحر والقدرة على إثارة الجماهير كما وصفوه بالشجاعة والكرم والحذر وامتلاك روح المبادرة.

وقد أشاد الفارس إرنول بإنسانيته عند دخوله بيت المقدس عندما تسامح مع أعدائه الصليبيين؛ أما المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس فقد ذكر: «إن المسلمين أكثر رحمة وإنسانية من الصليبيين، فعندما استعادوا بيت المقدس عاملوا النصارى بلطف ورقة، وحافظوا على نسائهم ولم ينتهكوا ولم يدنسوا على الإطلاق قبر المسيح، وحرصوا على دفن موتاهم بجواره. بينما في يوم سقوط القسطنطينية في قبضة هؤلاء اللصوص من العناصر الصليبية أسرعوا بنهب المنازل التي يقيم فيها الآمنون، وأكرهوا سكانها على إرشادهم عن أماكن إخفاء أموالهم وعاملوهم بقسوة وعنف»؛ أيضًا حريٌ بنا ألا ننسى تاريخ

الأفرنج الأسود عند دخول القدس، فقد ذكر المؤرخ ميشود كثيرًا من فظائع الإفرنج حين دخلوا القدس فقال: كان المسلمون يُقتلون في الشوارع، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه؛ وكان بعض القوم يفر من الذبح فيلقي بنفسه من فوق الأسوار، وكان الإفرنج المنتصرون يمشون على آكام من الموتى المسلمون، وقد أُحْرِق بعضهم وهم أحياء؛ وذهب في هذا الوقت نحو سبعين ألفًا من المسلمين بلا ذنب ولا إثم.

دخل القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي القدس فاتحًا في ليلة المعراج ٢٧ رجب الموافق في ٢ أكتوبر ١١٨٧ م، وقد كانت أحداث الفتح عظيمة على نفوس المسلمين، ويحق لنا أن نزهو ونفخر بذلك الخلق الإنساني الرفيع الذي عامل به صلاح الدين الأسرى من الإفرنج. فحقًا استرد صلاح الدين القدس للإسلام والمسلمين، إلا أنه برغم عظمة الانتصار لم يستسلم لحظة لمشاعر الرغبة في التشفي والانتقام. وقد ضرب البطل صلاح الدين أروع الأمثلة في تعامله مع الأسرى فكان يسمع نساء يبكين أزواجهن من الأسرى وأولادهن المفقودين فتترقرق عينيه بالدموع ويبكي معهن، فقد كانت الرحمة في قلب صلاح الدين نافذة لا تعرف في قاموسها قريبًا ولا بعيدًا، إنها تتسع حتى تعم الإنسانية كلها. ولم يرض صلاح الدين لنفسه في هذا المقام أن يبكي فقط بل أسرع بالأمر إلى هؤلاء الأزواج والأولاد أن يتبعوا نساءهم وأمهاتهم، وكانت هذه الدموع سببًا في إطلاق الآلاف من الأسرى الإفرنج، وحرص على عودة الأطفال المفقودين لأحضان أمهاتهم. ويذكر أنه كان يأمر لجميع الأسرى بالطعام والماء المثلج وأن يداوي الجرحى منهم منفذا لكلام الله تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وسنة نبيه المصطفى عليه افضل الصلاة والسلام حين قال «استوصوا بهم خيرا» قاصدًا الأسرى..

وقد سمح صلاح الدين للنصارى المقيمين بالقدس -والذين بلغ عددهم ١٠٠,٠٠٠ تحديدًا- بمدة شهر كي يرحلوا وكان عليهم دفع جزية الرحيل، وسمح لهم أيضا بأخذ متعلقاتهم، وكذلك النبلاء الأثرياء الذين

تكتظ بيوتهم بالجواهر والمقتنيات الثمينة، وعندما ظهر ما يقرب من ٣٠,٠٠٠ مسيحي فقير ممن لا يستطيعون دفع جزية الرحيل، وقد انتشرت الشائعات وشاع الهلع بينهم أنهم سيقتلون أو سيجبرون على اعتناق الإسلام قسرًا، إلا أن صلاح الدين كان على الجانب الآخر يفكر بمنتهى النبل. فبينما اقترح مستشاروه أن يدفع الأسقف المسيحي الثري هرقل الذي سيرحل أيضا من القدس فدية المسيحيين المتبقين كافة، رفض صلاح الدين أن يَقبل على مقايضة كتلك، بل ودفع هو وأخوه وصهره المال من مالهم الخاص وسمح للأسقف بالرحيل بكافة متعلقاته وثروته، ولم يكتف بهذا فحسب رتب أمر الراحلين وحرص على راحتهم، فجمعهم خارج المدينة تحت حراسة مشدَّدة، وقسمهم إلى ثلاث مجموعات، وأرسلهم مخفورين؛ خشية أن يتعرَّضوا لهجمات البدو أو الصليبيين الفارين في الطريق .

وفي عام ١١٩٢ ميلاديًا لاحت في الأفق جولة أخرى عندما عاد ريتشارد قلب الأسد رغبة منه في الاستيلاء على القدس من جديد، إلا أنه بالرغم من المحاولات الباسلة تعرقلت الحملة، وبرغم أن صلاح الدين وريتشارد لم يتقابلا فعليا لكن يبدو أن صلاح الدين كان حريصًا على أن يظل منتصرًا على ريتشارد بأفعاله الكريمة وأخلاقه النبيلة، فعندما مرض ريتشارد في حصار إيكر في عام ١١٩٢ م، أرسل له صلاح الدين طبيبه الخاص ابن ميمون لعلاجه، ولم يكتفِ بهذا فحسب بل أرسل له الثلج لمساعدته في الشفاء من الحمى وكذا بعض الفواكه والأعشاب المعالجة. وعندما قُتل حصان ريتشارد في أحد المعارك ووجد الملك الإنجليزي نفسه على قدميه في مواجهة جيش المسلمين بأكمله، أصدر صلاح الدين الأوامر فتركه المسلمون يمشي عبر كتيبتهم كلها دون مهاجمته، وأرسل له صلاح الدين فرسين حتى لا يشعر بقلة الحيلة، ولما توجب على ريتشارد ترك الحملة الصليبية والعودة إلى بلاده سمح له صلاح الدين بالتراجع بشرف. وليس غريبًا أن يكتب المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه عن صلاح الدين قائلًا: «حقًا إن كرمه وورعه وعدم تعصبه، وكونه نموذجًا للتسامح والتواضع جعلته يفوز بقدر من

الشعبية لدى الإفرنج على نفس القدر الذي حظي به في بلاد الإسلام»؛ أما دانتي صاحب الكوميديا الإلهية لم يستطع أن يسئ إلى صلاح الدين بل أثنى عليه وجعله ضمن مرتبة خاصة أطلق عليها «الأرواح عظيمة القلوب».

وليس عجيبًا أيضًا أن يظهر لدى الصليبيين أساطيرتنسج حول صلاح الدين لعل أشهرها **Legend of Saladin** حيث تم تصويره وقد تزوج من اليانور أم ريتشارد قلب الأسد وزوجة لويس السابع ملك فرنسا ومن بعده هنري الثاني ملك إنجلترا. أما بالنسبة للفرنسيين فوصل انبهارهم بأخلاقه إلى ابتداعهم شجرة نسب أسطورية تشير إلى أن صلاح الدين ينحدر من أصول فرنسية. ولابد من أن صلاح الدين كان يتمتع بشخصية ساحرة أخاذة، الأمر الذي جعل حتي اليهود يثنون عليه فيقول المؤرخ اليهودي الياهو أشتور: أنه في أوروبا في القرن ١٤ م -بعد انتهاء الحروب الصليبية في الشرق- وفي الليالي المظلمة، كان الأوربيون يجتمعون عند المدفئة كي يستدفئون وهم يرددون قصصًا عن صلاح الدين؛ وإن دل ذلك على شيء فهو بالغ إعجابهم به وأنه تمكن من غزوهم في عقر دارهم في الغرب الأوروبي!!

*****

سليمان القانوني، سلطان العالم

بقلم نهى عودة

في تاريخ الإسلام وعلى مدار أربعة عشر قرنا برز العديد من العظماء الذين قلّما يجود الزمان بمثلهم، قد تُعرف أسماؤهم في زماننا هذا وتُجهل أفعالهم أو تزيّف وتشوّه من قِبَل الإعلام الهزيل، وتظل الحقيقة غائبة في بطون أمهات الكتب. أحد هؤلاء هو السلطان العثماني «سليمان القانوني»، السلطان الذي ظلمه الإعلام فوجب إجلاء الوجه الحقيقي له وإبراز أعماله الجليلة في خدمة الإسلام والمسلمين. ولا ريب أن مسلسل حريم السلطان، الذي تناول قصة حياة القانوني، كان

له دور كبير في تشكيل صورة للسلطان وحياته، بالرغم مما قالته ميرال أوكاي كاتبة المسلسل قبيل وفاتها في حديث صحفي ردا على النقد الذي وُجه إليها: «إن المسلسل إطلالة خفيفة من قريب على واحدة من أقوى امبراطوريات العالم، وفي تأكيد أن السلاطين العثمانيين كانوا بشرا في النهاية، يحب ويخاف ويغضب ويخطئ، فمن أحب الإطلاع على تاريخ السلطان سليمان القانوني فعليه بكتب التاريخ العميق، أما من أراد أن يستمتع بجمالية التصوير والخيال الدرامي فعليه بمتابعة المسلسل!»

سليمان خان هو الابن الأوحد للسلطان سليم الأول الملقب بياووز (أي الشجاع)، وقد كفل هذا للأمير الصغير تلقيه تعليما جيدا وتربية إسلامية سلطانية فائقة لكونه ولي العهد الوحيد. تولى سليمان الحكم بعد وفاة والده عام١٥٢٠م وكان والده قد أورثه خزينة سلطانية ممتلئة عن آخرها وجيشا قويا مخلصا في البر والبحر؛ مما ساعد سليمان في ردع الثورات التي قامت ضده في بداية حكمه في مصر والأناضول. فطن سليمان إلى ضرورة تغيير بوصلة الجهاد التي عقدها والده صوب الجنوب والشرق عندما شاهد امبراطورية تشارلز الخامس تتوسع وتنمو لتُجهِز على الدولة الإسلامية، فاتجه سليمان بجيوشه صوب أوروبا ليكون الغرب هو وجهة معظم حملاته الحربية، فقضى هذا السلطان، الذي صوّرته الدراما على أنه زير نساء وألعوبة في أيديهم، جميع مراحل عمره تقريبا في الخروج إلى الغزوات والفتوحات، وقد استطاع سليمان أن يحجز لنفسه مكانة مرموقة بين السلاطين العثمانيين بفضل ثلاثة عشر غزوة كبرى خرج فيها بنفسه على مدار حياته بدأها بفتح بلجراد وانتهى بسيكتوار، ويذكر المؤرخون أن عدد ما فتحه سليمان في حياته من الحصون والقلاع والمدن يناهز ٣٦٠ حصنا، وفي عهده وصلت جيوش المسلمين إلى قلب أوروبا عند أسوار فيينا مرتين حتى أنه لُقب حينها بمجدد جهاد الأمة. وقد ذكر أحد المؤرخين أنه في القرن السادس عشر كان يمكن لزائر من المريخ أن يظن أن عالم البشر على وشك أن يصبح مسلما كناية عما فعله سليمان

من أجل الإسلام.

لَعِب التطور الذي أحرزه السلطان سليمان في عهده على الصعيدين السياسي والعسكري، والذي انعكس بدوره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، دورا متميزا في الموازنة بين البلدان الأوروبية، وكان له إسهام قوي في تشكيل أوروبا الحديثة، حتى أن الأوروبيين كانوا يطمحون لتأسيس دولة عالمية على طراز الدولة العثمانية المترامية الأطراف في عهده، وهو الذي جعلهم، برغم خصومتهم الشديدة معه، يطلقون عليه لقب السلطان العظيم. ويكفي سليمان فضلا اهتمامه البالغ بالدولة الإسلامية السنية في مواجهة الدولة الصفوية الشيعية التي كانت بدورها قد بدأت في إقامة تحالفات مع النمسا والإمبراطورية الرومانية، وقامت بعقد المؤامرات لتأليب عدد من البكوات في الأناضول ضد الدولة العثمانية، الأمر الذي جعل سليمان يحشد جيوشه ضد الصفويين، ودخلت الجيوش السنية بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا مدينة تبريز ظافرة، ولم يملك الشاه الصفوي طهماسب إلا الفرار إلى داخل بلاد فارس. إلا أنه من الجدير بالذكر أن طهماسب كان لا يذكر سليمان إلا بقوله «حضرة السلطان «رغم العداء الشديد بينهما وكان يبرر ذلك بأنه معجب كثيرا بغزواته الناجحة وأنه يعتبره بيرق الغزاوت في الغرب.

يحسب للسلطان سليمان تقديره لأهل الكفاءة وتعيينه لهم في مناصب عليا بالدولة، كتعيينه لخير الدين بربروس قائدا للقوات البحرية العثمانية، الذي أضحت السيادة والسيطرة في البحر المتوسط في عهده للدولة العثمانية بلا منازع وخاصة بعد نصر بريفيزا الشهير عام ١٥٣٨ والذي ما زال يُحتفل به حتى الآن في تركيا باسم يوم القوات البحرية التركية. ويحسب له أيضا تعيينه للمعماري العظيم سنان، الذي يعد واحدا من أعظم المعماريين في تاريخ العالم. وشهد عهد سليمان الطويل، الذي دام ستة وأربعين عاما، قمة ازدهار الفنون والثقافة العثمانية، وانتشرت حركة الإعمار والبناء في الولايات

العثمانية على مدى اتساعها، ولا شك أن أكبر مشروعاته هي تلك التي تمَت في الأراضي المقدسة، فقد أمر بترميم المسجد الأقصى وجامع قبة الصخرة في القدس والحرم المكي، فشيّدت الملاجئ لاستضافة الحجاج وأنشئت الحمامات العامة.كما قام بتحصين الأسوار القائمة حول المدينة المنورة لحمايتها من قطّاع الطرق، بالإضافة لترميمات واسعة في المسجد النبوي، واتخذ إجراءً يعتبر الأول من نوعه، حيث أوقف مبلغا سنويا لأجور الأشخاص الذين يخدمون في الحرم، وغيرها من الخدمات الجليلة الأخرى.

لقد اكتسب سليمان لقب «القانوني»، الذي اشتهر به واقترن باسمه، نظرا للقوانين التي وضعها لتنظيم الحياة في دولته الكبيرة، وكان شديد الحرص على اتفاق تلك القوانين مع الشرعية الإسلامية، وإجلالا لمساهماته التي لا يستطيع أحد إنكارها، فإن هناك نقشا غائرا يزين مجلس النواب الأمريكي وهو واحد من النقوش الثلاثة والعشرين التي تكرم سانّي القوانين عبر التاريخ. وقد اشتد به المرض أواخر أيامه فكان لا يستطيع ركوب الخيل، وكان قد تجاوز عقده السابع، إلا أنه عندما علم بأن ملك هابسبرج أغار على ثغر من ثغور المسلمين، أصر على الثأر وقيادة الجيش بنفسه حتى وصل إلى مدينة سكتوار المجرية، وكان طبيبه قد نصحه بعدم الخروج إلا أن جواب السلطان الذي خلّده له التاريخ كان: «أحب أن أموت غازيا في سبيل الله«، فتحامل رحمه الله على نفسه إظهارا للقوة أمام أعدائه ووافته المنية أثناء الغزوة في الخامس من سبتمبر ١٥٦٦م بشكل يليق بعظمة سلطان قضى عمره في الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام، سلطان جاب العالم كله فاتحا حتى استحق عن جدارة لقب سلطان العالم.

مولد إمبراطورية

كيف أسهمت الحضارة العثمانية في التطور العمراني لشرق أوروبا؟

بقلم كريم عبد المجيد

هي المرة الأولى التي تجتمع فيها حضارة الشرق والغرب على الأراضي الأوروبية لقرون خمسة وتزيد، تحولت فيها جنوب شرق أوروبا تحت الحكم العثماني إلى جزء من العالم الإسلامي بسياسته وعمارته وثقافته واقتصاده، فبُنيت وطورت عشرات المدن الجديدة، وتحولت قرى وقلاع وبلدات سابقة إلى مراكز ثقافية وتجارية كبيرة، إلى أن وصلت بعض من هذه المدن إلى عواصم ومدن رئيسية في الجمهوريات القومية الحديثة القائمة الآن. ويرجع أحد أسباب هذا التطور إلى النظام الإداري العثماني الذي كان يقسم أراضيه إلى ولايات، والولايات إلى وحدات إدارية تسمى «سناجق»، وكان كل سنجق يسمى عادة بأكبر مدينة فيه، إلا أنه كان يتم أحيانًا اختيار بلدة صغيرة كمركز للسنجق، مما يجعلها تتطور بشكل سريع وتتحول إلى مدينة.

ولعل عدد المباني الإسلامية التي شُيدت وأقيمت فى البلقان العثماني شاهد على رسوخ الحضارة الإسلامية في الأراضي الأوروبية لقرون تتراوح ما بين ٥ إلى ٦ قرون، فوصل عدد الجوامع والمساجد والأسبلة والمدارس والآثار العثمانية في البلقان طوال قرون الحكم الطويلة إلى ١٥ ألف ٦٤٤ أثر ومبنى، تم تدمير آلاف كثيرة منهم بشكل منهجي فترة حكم الدول القومية التي بنتيت على أنقاض الدولة العثمانية (على سبيل المثال وجد في بلغراد فترة الحكم العثماني التي يتخللها فترات انقطاع ١٠١ مسجد لا يتبقى منهم حاليا إلا مسجدًا واحد).

وهنا أحاول أن ألقي الضوء على مدن وعواصم حالية لأربع دول أوروبية، أنشأها وطورتها سياسات الإدارة العثمانية بذكر أرقام لأعداد

السكان والمنشئات التي تم استحداثها على هذه الأراضي على امتداد قرون، لتصل إلى القرن العشرين كمدن هامة استحقت أن تصبح عواصم ومدن رئيسية لجمهوريات مستقلة.

سراييفو **Sarajevo**

تعتبر «سراييفو» [عاصمة البوسنة والهرسك حاليًا وأكبر مدنها] إحدى المدن البلقانية الجديدة، التي نشأت وتطورت تحت الحكم العُثماني للبوسنة، وتحولت تحت هذا الحكم إلى واحدة من أكبر المدن في أوروبا الجنوبية الشرقية، وواحدة من أكبر مراكز الثقافة الإسلامية في البلقان. وكان للوقف دورا كبيرا في نشوء المدن الجديدة في البلقان، ومنها مدينتنا التي نتحدث عنها، والتي تعتبر أول مدينة تنشأ في البوسنة على النمط الشرقي الإسلامي بعد الفتح العُثماني.

يرتبط اسم المدينة [سراي بوسنة أو سراييفو] بـ«عيسى بك» مؤسسها، حيث قام بإنشاء وقفه الذي شكل النواة الرئيسية للمدينة في هذه المنطقة، والذي تكون من جامع في ١٤٥٧ باسم السلطان «محمد الفاتح»، وحمامًا -بقي حتى ١٨٨٩-، وجسرا على نهر «ميلياتسكا»، وخان [فندق]، وبيزستان [سوق مغطى للبضائع والمنسوجات] يحتوي على محلات كثيرة، وتكية في قرية «بروداتس» المجاورة **Prodac** التي خُصصت [حسب الوقفية] لنزول «الفقراء والفسلمين من السادات والغزاة وأبناء السبيل» وتقديم الطعام لهم، وأوقف عليها العديد من الطواحين والكثير من الأراضي. والجدير بالذكر أن وقفية «عيسى بك» قد كُتبت «بالعربية»، وهي اللغة الجديدة التي دخلت البلقان مع العثمانيين، وأصبحت من لغات الثقافة الإسلامية الجديدة التي ساهم بها «البشانقة» بما ألفوه بعد انتشار الإسلام هناك.

أخذت هذه النواة العُمرانية (الجامع-الحمام-السوق-التكية) تكبر بسرعة، فنمى حي جديدة حول الجامع، وحي ثاني حول التكية، وثالث حول السراي، ومع مرور الوقت، وصلت هذه المدينة إلى عصرها

الذهبي في النصف الأول من القرن السادس عشر، على يد الوالي «خسرو بك»، مع كثير من المباني الجديدة التي أوقفها لتطوير المدينة مثل مسجد «خسرو بك»، مدرسة، مكتبة، تكية، خان، بيزستان، حمام، بالإضافة إلى كثير من الولاة الآخرين الذين ساهموا بوقفياتهم في نمو المدينة، مما عمل نمو المدينة ونشاط التجارة والكثير من الحرف بشكل سريع، حتى تحولت المدينة إلى واحدة من أعظم مدن جنوب شرق أوروپا.

وبناء على وصف الرحالة العثماني الشهير «أوليا چلبي» للمدينة عندما زارها عام ١٦٦٠، فإنه يتضح مدى اتساع المدينة وضخامتها، فقد ذكر بأنها تحتوي على ٦٠٠ حي سكني، ١٧٠٠٠ منزل، ٧٧ جامع و١٠٠ مسجد، العديد من المدارس، ١٨٠ مكتب لتعليم الصبية، ٤٧ تكية، ٣٠٠ سبيل، ٧٠٠ بئر، ٥ حمامات، ٣ كروانسراي [نزل للمسافرين والقوافل]، ٢٣ خان، ١٠٨٠ متجر، بيزستان، ٧ جسور على نهر «ميلياتسكا»، كنيسة كاثوليكية، وكنيسة أرثوذكسية، وغيرها.

پريزرين Prizren

پريزرين [ثاني أكبر مدن «كوسوڤو» حاليًا] هي بلدة بيزنطية في الأصل، ضُمت إلى الإمبراطورية الصربية في عهد الإمبراطور ستفان دوشان [عاش في الفترة من ١٣٠٨ إلى ١٣٥٥]، وهي إحدى أفضل مدن البلقان التي ما زالت تحتفظ بشكلها العثماني الخارجي العائد إلى القرن التاسع عشر، حيث تدخل مقاطعات كاملة منها تحت قانون حماية الآثار الثقافية.

ومنذ الفتح العثماني للبلدة عام ١٤٥٥ حتى انتهاء الحكم العثماني منها عام ١٩١٢، مثلت پريزرين واحدة من أكبر مدن البلقان، ومركزًا ثقافيًا إسلاميًا بارزًا في المنطقة، فقد احتوت على عشرات المساجد والحمامات، ومجموعة من المدارس وتكايا الطرق الصوفية التي تنوعت بشكل واسع، ومكتبة حوت العديد من المخطوطات الإسلامية

القديمة. وقد عاش وعمل في هذه المدينة مجموعة هامة من الشعراء والكُتاب العثمانيين، حتى أن المترجم والشاعر الكوسوفي الكبير «عاشق چلبي» [١٥٢٠-١٥٧٢] قد ذكر بأن پريزرين «منبع الشعراء» .

بالنظر إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، نجد أن البلدة لم تنمو في المساحة بشكل كبير، إلا أن السمة الإسلامية فيها أصبحت مسيطرة، فقد تحول نسبة من عدد سكان المدينة إلى الإسلام [في عام ١٥٧٠ وصل عدد سكان المدينة الذين تحولوا إلى الإسلام إلى ١٣٪ من المجموع الكلي]، وتم تشييد الكثير من المباني الإسلامية [مساجد - تكايا - الأسبلة]، وبالاعتماد على الوقفيات والوثائق الموجودة بالأرشيف العثماني نستطيع بدقة تتبع النمو الإسلامي للمدينة، فمثلا تخبرنا الوقفيات بأنه في عام ١٥٢٠ وجد بالبلدة عدد ١ «جامع»، ٤ «مساجد»، «حمام»، و»مكتب» [لتعليم الصبية]، هذا العدد الذي نجده قد ارتفع في عام ١٥٧٣ إلى ٤ «جوامع»، ١٣ «مسجد»، «حمامان»، ٣ «مكاتب»، ٢ «كروانسراي»، ١ «مدرسة»، و»مكتبة» حوت مجموعة كبيرة من المخطوطات في الدين، والطب، والرياضيات، والتاريخ، ما زالت قائمة إلى الآن.

ولدينا وصف للمدينة في عامين ١٦٠٦ و١٦١٤ بواسطة أسقفين كاثوليك زارا المدينة في هذين العامين وهما «ماريو بيزي Mario Bizzi» و«پيترو ماساريكي Pietro Masarechi» الذين وصفوا المدينة «بجمال منازلها واحتواء كل منزل على ساحة كبيرة ونافورة مياه، وزرع وأشجار». أما من ناحية عدد المنازل، فقد قدر بيزي مجموع المنازل بـ ٨٦٠٠ منزل، يمثل عدد منازل الكاثوليك منهم ٣٠ منزلا فقط بكنائس خاصة بهم. ومن ناحية ماساريكي، فنجد أنه قدر عدد المسلمين في المدينة بعدد ١٢٠٠٠ نسمة، ٦٠٠ نسمة من الصرب، و٢٠٠ من الكاثوليك، الأرقام التي قد تختلف مقارنة مع البيانات العثمانية، إلا أنه يدل على أن مساحة البلدة كانت تأخذ في الازدياد بشكل مستمر مع مرور القرون. وفي عام ١٨٤٣ ضمن إطار إعادة تنظيم «ولايات»

الدولة، أصبحت پريزرين عاصمة ولاية «البوسنة» والذي أثر على نمو عدد سكان المدينة بشكل كبير، وقد وصفها الدبلوماسي النمساوي المتخصص في تاريخ ألبانيا وثقافتها «يوهان گيورگ فون هان» في عام ١٨٦٥ بأنها «أكبر مدينة في ألبانيا»، الأمر الذي يتفق فيه مع «د. فون پيتلينتس Dr. von Petelenz» ممثل القنصلية النمساوية الذي عاش عدة سنوات بالمدينة في القرن التاسع عشر، وقام بكتابة تقرير عن المدينة ذكر فيه أن بالمدينة ١١٥٤٠ منزلا، ٨٤٠٠ منهم للمسلمين، ٣٠٠٠ للأرثوذكس، و١٥٠ للكاثوليك، وذلك بمجموع كلي للسكان يصل إلى ٤٦ ألف نسمة، منهم ٣٦ ألف مسلم أما بالنسبة لعدد المساجد في التقرير، فقد ذكر بأن المدينة بها ٢٦ مسجد، كنيستان أرثوذكسيتان، وكنيسة كاثوليكية، و١٧ مكتب لتعليم الأولاد، و٩ لتعليم الفتيات، ومدرسة «رشدية»، ومدرسة للطائفة الأرثوذكسية والكاثوليكية. أما من الناحية الاقتصادية فمثلت پريزرين مصنع الأسلحة في البلقان، فينتج بها السيوف، وجميع أنواع البنادق والمسدسات، كما يُنتج كذلك جلد السفيانو، والعديد من أنواع المنسوجات، بالإضافة إلى اشتهارها بالفضة.

وفي أكتوبر عام ١٩١٢ أثناء حرب البلقان الأولى، تمكن الجيش الصربي من احتلال المدينة والقيام بمذبحة الجيش الصربي من احتلال المدينة والقيام بمذبحة مروعة للمسلمين فيها، صدر حيالها تقارير تفيد بأن عدد ضحايا هذه المذبحة وصل إلى ١٢ ألف مسلم، كما تم تفجير قلعة المدينة والمباني الملحقة بها، وتم تحويل جامع السلطان «محمد الفاتح» إلى كنيسة، وتدمير أغلب الجوامع والمباني التي تعطي المدينة شكلها الإسلامي.

بلغراد Belgrade

في الأصل قلعة حدودية [حاليًا عاصمة جمهورية صربيا وأكبر مدنها] بموقع ذو أهمية كبيرة يمثل بوابة مفتاح التحكم بطريق المواصلات الحيوي للغرب في اتجاه البلقان والشرق، وللشرق في اتجاه الغرب.

سيطر العثمانيون عليها بقيادة السلطان «سليمان القانوني» عام ١٥٢١، واستمرت تحت الحكم العثماني حتى عام ١٨٦٧ باستثناء فترات متقطعة سيطر النمساويين عليها فيها. وأثناء فترة الحكم العثماني الأولى [من ١٥٢١ حتى ١٦٨٨] توفر الاستقرار للموقع وتحولت بلغراد من مجرد قلعة إلى واحدة من أكبر نماذج المدن الإسلامية في أوروبا الشرقية، وأصبحت في وجدان وشعور الرحالة الأوروبيين الغربيين «بوابة الشرق» وبداية الانتقال من الغرب الأوروبي إلى الشرق المسلم.

استمرت بلغراد في السنوات الأولى من الحكم العثمانيكقلعة ومركز عسكري رئيسي تنطلق منه الجيوش العثمانية لمتابعة الفتوحات في أوروبا، ولكن بعد توسيع رقعة الدولة بفتح «بودا» عاصمة مملكة المجر عام ١٥٤١ و»تمشوار» عام ١٥٥٢، أخذت بلغراد تتطور بسرعة كبيرة من قلعة حدودية إلى مدينة ذات ثقل تجاري واقتصادي بارز في البلقان. وتفيدنا الوثائق الموجودة بأنه في عام ١٥٣٦-١٥٣٧ كان بالبلدة ٤ أحياء للمسلمين، بعدد ٧٩ أسرة يعيشون حول ٤ مساجد. بينما وُجد ٦٨ أسرة مسيحية تعيش في ١٢ حي بالبلدة. وبعد انتصاف القرن السادس عشر، ازداد أعداد المسلمين بالمدينة بشكل كبير عبر ٣ محاور، الأول عبر جلب الحرفيين والتجار المسلمين من أنحاء الأناضول وإسكانهم في البلدة مما كسب البلدة ثقل حرفي جديد، الثاني عبر الحامية العسكرية والجهاز الإداري للبلدة الذي يعيش في المدينة، والثالث عبر تحول سكان المدينة للدين الإسلامي، وبلغة الأرقام نجد أنه في عام ١٥٧٢-١٥٧٣ ازدادت مساحة المدينة بشكل سريع، وأصبح يقطنها ٦٠٠ أسرة مسلمة في ٢١ حي، و٢٠٠ أسرة مسيحية، ١٣٣ أسرة من الغجر، و٢٠ أسرة يهودية. وبمرور أول قرن من الحكم العثماني، تحولت بلغراد إلى أكبر مدن البلقان ذات الطابع الشرقي الإسلامي، وحسب وصف المؤرخ الصربي المعاصر «دوشان بوبوڤيتش Dušan J. Popović» فإن بلغراد أصبحت تشبه «دمشق» أو غيرها من مدن الشرق بسكانها، ومنشآتها، وثقافتها، وتقاليدها. أما وضع المدينة الاقتصادي، فقد أدى الموقع المميز لها إلى تحولها إلى وسيط تجاري

بين الشرق والغرب، أي بين البلاد العربية والبلاد الأوروبية، فحسب وصف «أوليا چلبي» في زيارته لبلغراد في القرن السابع عشر عام ١٦٦٠، كان يأتي للمدينة كل عام من ٥ إلى ٦ آلاف حمل من البضائع على الجمال والعربات من مصر، دمشق، صيدا، بيروت، بالإضافة إلى إيران، كما كان يتم تهيئة هذه البضائع لإعادة تصديرها إلى المجر، وبولنيا، والسويد، والبندقية وغيرها.

يذكر لنا كذلك «أوليا چلبي» تطور عدد سكان المدينة وبالتالي مساحتها، فيذكر رحالتنا بأنه وجد ٣٨ حي للمسلمين، و١١ حي لبقية الأعراق (صرب، يونانيين، غجر، يهود، أرمن)، بعدد ٩٨ ألف نسمة كمجموع كلي بينهم ٢١ ألف من غير المسلمين، كما وجد ٢١٧ مسجد وجامع [وقد ذكر كاتب چلبي بأنهم يصلوا إلى ١٠٠ فقط]، ١٦٠ قصر، مع وجود ٦ كروانسراي، واحدة منها كانت تشبه القلعة في ضخامة حجمها، حيث حوت على ٦٠ قاعة في الطابق الأرضي والأول، مع إسطبل للجمال وآخر للخيول، كما حوت المدينة كذلك على «بيزستان» [سوق مغطى للبضائع والأقمشة]، ٦٠٠ سبيل، ٢١ خاناً، ١٧ تكية، ٢٧٠ كتّاب، ٨ مدارس، ٩ معاهد لدراسة «الحديث الشريف»، دار لضرب النقود، بالإضافة إلى كنائس ومؤسسات ثقافية للمسيحين والأقلية اليهودية. وقد أجمع كل من زار بلغراد في القرن السابع عشر على أنها بلدة هامة بشكل شرقي إسلامي واضح .

تعرضت المدينة لتدمير ممنهج للرموز الإسلامية الموجودة بها تحت الحكم النمساوي الذي حاصر المدينة وسيطر عليها لثلاث فترات: الفترى الأولى القصيرة من ١٦٨٨ حتى ١٦٩٠، والفترة الثانية الأطول من ١٧١٧ حتى ١٧٣٩، والفترة الثالثة من ١٧٨٩ حتى ١٧٩١، وخاصة في الفترة الثانية التي عمد فيها إلى قتل السكان المسلمين وإبادتهم، وتحويل المساجد إلى كنائس كاثوليكية أو وتدميرها، واستخدام جزء منها في أغراض أخرى كمخازن ومشافي، كما تم تحويل الحمامات أماكن للاستخدام في أغراض أخرى مثل مخازن للبارود، وبيوت

سكنية، مما جعل أحد الرحالة ويُدعى «دريش» يقول عند زيارته المدينة عام ١٧١٩ أي بعد عامين فقط من الاحتلال النمساوي: «من شاهد بلغراد في عهد الأتراك وعاد لمشاهدتها اليوم لا يمكن أن يقول أبدًا أن هذه المدينة هي بلغراد السابقة».

سكوپيه Skopje

يعود تاريخ وجود هذه المدينة [حاليا عاصمة جمهورية مقدونيا] في نفس الموقع القائم الآن إلى القرن السادس الميلادي في عهد الإمبراطور البيزنطي «جستينيان الأول»، وورثها الصرب فيما بعد وظلت في حوزتهم من ١٢٨٢ حتى وقت فتحها على يد السلطان «بايزيد الأول» عام ١٣٩٣. أصبحت سكوپيه/اسكوب بعد فترة من الزمن المقر الثاني لسلاطين آل عثمان بعد «إدرنة»، وأضحت قاعدة للغزوات في الشمال، ونشطت فيها حركة البناء للجوامع والمساجد والمدارس والجسور والحمامات وأنواع العمائر المختلفة التي ما زال جزء منها قائم إلى الآن، فمنذ القرن الخامس عشر وحتى السابع عشر شهدت المدينة حركة عمرانية مذهلة تحولت على إثرها إلى واحدة من أهم المراكز الإدارية العثمانية في شرق أوروپا، حيث تُضرب العملة وتصك، بالإضافة إلى حركة علمية وثقافية كبيرة شهدتها المدينة، وحصول مدارسها على سمعة طيبة، وتحولها إلى مركز تجاري قوي.

حوت البلدة في عام ١٤٥٠ ٣٣ حيًا منهم ٢٥ للمسلمين و٨ أحياء للمسيحين، أما في عام ١٥٤٤ فقد حوت المدينة على ٦٧ حي منهم ٥٣ للمسلمين و١٤ للمسيحين، بعدد متاجر وصل إلى ١٠١٥ متجر. وصف المدينة العديد من الرحالة الأوروپيين الذين زاروها في القرن السادس عشر والسابع عشر في زروة تطورها، كما زارها العالِم العثماني الكبير «كاتب چلبي»، والرحالة «أوليا چلبي» الذي زارها في القرن السابع عشر عام ١٦٦١ وسجل وجود ٧٠ حي فيها، ١٠,٠٦٠ منزل، ٢١٥٠ متجر، ١٢٠ جامع ومسجد، ٩ دور لقراءة القرآن وتجويده، ٧٠ مكتب لتعليم الصبية، ٢٠ تكية وغيرها. انتهى العصر الكبير للمدينة بالحرب التي شنتها

القوات النمساوية لاحتلال المدينة، وانتصرت فيها في أكتوبر ١٦٨٩، حيث تم تدمير المدينة بشكل كامل قبل استعادتها عام ١٦٩٠، مع هروب أهلها منها، بالإضافة إلى الزلازل المتتابعة التي ضربت المدينة، والطاعون الذي تفشى فيها وقضى على نسبة ضخمة ممن تبقى من سكانها. مع بداية القرن التاسع عشر، هاجر إلى المدينة أعداد كبيرة من السكان من الولايات المجاورة، فالمسيحين أتوا من كوسوڤو ومقدونيا، المسلمين من البوسنة، ليعيدوا تعميرها مرة أخرى، حتى خروجها من تحت السيطرة العثمانية إلى السيطرة الصربية بشكل نهائي في حرب البلقان عام ١٩١٢.

*****

أندلسيات

المدجنون، فصل من فصول الأندلس المنسية

بقلم إبراهيم أحمد عيسى

بعد سقوط قواعد ومدن المسلمين في الأندلس واحدة تلو الأخرى في يد الممالك النصرانية –قشتالة وأخواتها– أصبح الكثير من المسلمين رعايا يعيشون في ظل الحكام الجدد، صاروا يدفعون الضرائب والجزية بعدما كانوا أصحاب الأرض وحكامها، وبرغم أن المساجد تحولت فور دخول القشتاليين لكنائس، إلا أن المسلمين احتفظوا بدينهم وكامل شعائرهم ولكن في ظل ظروف قاسية كونهم مواطنين من الدرجة الثالثة، فقد تبدل الحال تمامًا وبرغم ذلك رفض معظمهم الهجرة لبلاد المغرب أو إلى غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، مفضلين البقاء في منازلهم خاضعين لسيطرة القشتاليين والبرتغاليين، وقد هاجرت بعض العائلات العريقة إلى المناطق الساحلية الجنوبية. أما من بقي في مناطق سيطرة الإسبان، كان يتشبث بأمل عودة الجيوش الإسلامية، فظل بجوار أرضه ومزروعاته وتجارته، وكان الأغلب ممن لم يهاجروا من الفقراء والضعفاء، فعدم

قدرتهم على الرحيل والهجرة جعلتهم عرضة لإغراءات نبلاء الإسبان، فخدموا في الضياع والقصور، وقد أطلق على هؤلاء اسم المدجنين Losmadejares، وقد ظلوا يحتفظون بدينهم وثقافتهم العربية الإسلامية ويعيشون في المجتمع المسيحي في أحياء خصصت لهم كمواطنين أقل درجة من المستوطنين الجدد الذين تم جلبهم من شتى بقاع أوروبا لتوطينهم في ديار المسلمين.

كانت حروب الاسترداد كما يسميها الغرب عبارة عن حملة صليبية تهدف لطمس أثر المسلمين من شبه جزيرة إيبريا، وليس إسقاط الكيان السياسي لدولة المسلمين في الأندلس فقط، ولكن كيف كان سيحدث ذلك في ظل وجود حكومات سياسية قوية في بعض المدن الأندلسية، مدن تحوي على نسيج واحد من الناس تجمعهم هوية واحدة ولغة واحدة، فكان من الصعب تهجير ذلك الكم الهائل من أهل البلاد، فإن رحلوا فالأغلب أنهم سيتجهون جنوبًا إلى غرناطة التي ستقوى بهذه الأعداد من الحرفيين والزراع وسيكون أغلبهم خط الدفاع الأول في هيئة جنود تحاول العودة واسترجاع مدنهم وحضارتهم. لذا نستطيع أن نقول إن بقاء المدجنين في إسبانيا لمدة تصل إلى ثلاثة قرون كان نتيجة:

- وجود كيان قوي ممثل في مملكة غرناطة، جعل قشتالة وحلفاءها يرجحون التمهل في مسألة الطرد والتنصير حتى يتم التخلص من تلك اليتيمة –غرناطة– خوفًا من تجييش جيوش غرناطة والمغرب.

- الخوف من عدم ملء فراغ المسلمين في الحقول والأسواق، كما أنهم أعلم الناس بالأرض وفلاحتها ومنهم الحرفيين المهرة، فما وجه الاستفادة من مدن خاوية من أهلها؟ فبعد سقوط قرطبة لم يجد القشتاليون سوى المدجنين ليتم تعيينهم في بعض المناصب داخل المدن وتوليهم أمور العمارة والبناء والري.

- محاولة الإبقاء على المدجنين والاهتمام بهم سيجعلهم ينصهرون مع

المجتمع المسيحي باستخدام وسائل شتى، كالمصاهرة بين المدجنين والقشتاليين في بعض المناطق لتتحلل النزعة العصبية للإسلام، وتعليمهم اللغة القشتالية، فنجد بعد عدة قرون أن المدجنين بعد أن تحولوا لموريسكيين، استخدموا لغة الخميادو – Aljamiads

– وتعني الأعجمية والتي تكتب بحروف عربية وتنطق بالقشتالية.

- تلبية لمطالب نبلاء قشتالة وأراجون، ليس من باب الرفق والعطف وإنما حرصًا على مصالحهم وأعمالهم.

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزُّهمُ

أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم

واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ

هكذا وصف الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي حال أهل الأندلس بعد سقوط القواعد الكبرى، فقد تمت معاملة المدجنين معاملة سيئة فكانت توكل لهم الأعمال الشاقة بمقابل زهيد وبلا مقابل في بعض الأحيان، تم تجميعهم في أحياء خاصة، حتى يتسنى نقل مستوطنين من أوروبا لديارهم في الأحياء القديمة، وقد تم إلزامهم بلباس خاص أو شارة تميزهم هم واليهود وكانت توضع دائرة صفراء على صدورهم لتميزهم، كما تم وضع بعض القوانين الخاصة بهم مثل:

- لا يجوز لمسلم أن يستخدم مسيحيًا في عمل ومن يخالف تصادر أملاكه ويسترق.

- لا يسمح لدخول مسلم منزل مسيحي إلا إذا كان طبيبًا.

- من يرحل عن الديار وأمسك به يعتبر أسيرًا وملكًا لمنيمسك به وتصادر أملاكه.

- تحريم ركوب الخيل والتزين بالفضة والذهب نساءً ورجالًا.

- عدم حمل السلاح واقتنائه.

- من يعارض تنصير أو تعميد أحد أبنائه يحكم عليه بالسجن وغرامة فادحة.

كما تم إجبارهم على العمل في الكنائس وصنع التماثيل وتغيير معالم الآثار الإسلامية، ولا تزال الكثير من الآثار الإسلامية والمسيحية في إسبانيا تبرز براعة وفن المدجنين، وقد صدر بيان من اليونسكو بالحفاظ على التراث المدجن فهو فن فريد يجمع بين الأصالة الإسلامية والفن القوطي القديم والمسيحي الكاثوليكي، ويظهر جليًا في أبراج الكنائس وبعض القصور والمباني التي ما زالت تحفظ آثار أنامل صانعيها.

حاول البعض التأقلم مع تلك الأوضاع السيئة انتظارًالانفراج الأمور والتي تضاءلت حتى صاروا يلتمسون ما يلقيه عليهم النبلاء من نِعم، وقد نجد أن مدجني أراغون كانوا أفضل حالًا من مدجني قشتالة والبرتغال، فقد حافظوا على هويتهم ودينهم في القرى وبعض مدن الشرق الأندلسي كبلنسية ودانية ومرسية وشاطبة وكان منهم حرس خاص للملك –بيدرو القاسي– الذي كان وزيره يهوديًا أيضًا خلافًا لكل ملوك الكاثوليك الإسبان، أما مسلمو قشتالة فكانوا يتعرضون لأقصى درجات التنكيل فهرب الكثير منهم باتجاه غرناطة ومن بقي اندمج وكثر الزواج مع الإسبان ومع مضي الزمن وتعاقب الأجيال فقدوا دينهم ولغتهم وأصولهم العربية. ومع ظهور اللوثرية سخَّرت قشتالة كل قواها لحماية الكاثوليكية من أعدائها –المسلمين والبروتستانت– وبدأت مرحلة جديدة بالتنكيل والقتل والتشريد لكل من له أصل عربي مسلم، لتبقى ممالك إسبانيا هي المهيمنة والقوى العظمى للمسيحيين في أوروبا. وبعد صدور قرار التنصير الإجباري عام ١٥٠٢ م بأمر من إيزابيلا وفرناندو انتهى عصر المدجنين ليتحولوا رغمًا عنهم إلى

موريسكيين، ليفرض عليهم اسم جديد كسابقه، وليبدأ فصل جديد من المعاناة، ولم تنتهِ بالطرد فقد بقي الموريسكيون قرونًا يخفون إسلامهم وشعائرهم عن الحكومات الإسبانية المتتالية التي كانت تتعامل بصرامة مع كل ما يمت للإسلام بصلة.

*****

رماد العصر الذهبي

بقلم مريم المير

تحفل مناهجنا التعليمية بدروس عن العصور الوسطى، درسنا أنها تلك الفترة التي دامت قرونا تفرد أجنحتها المعتمة وتنشر الجهل والأمراض وكل ما يمت للانحطاط بصلة في ربوع أوروبا، لدرجة أن وصفها المؤرخ الإنجليزي جيبون بألف سنة من الهمجية والدين. غير أن الأمر لم يكن كذلك تماما؛ ففي الوقت الذي كانت معظم القارة ترزح في الظلام تحت سلطة الكنيسة وتسلطها، كان هناك في شبه الجزيرة الأيبيرية عالم آخر، تشع قبسات نوره للخارج، عالم راقٍ قد قطع أشواطا في بناء الإنسان والعمران في مختلف ميادين الحياة.

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخر الاقتصادي وعدم الاستقرار نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد، والسلطة الفاسدة، لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية؛ بل كان بإمكانها أن تصدَّ جيشًا مهاجمًا وتُحاربه وتقف في وجهه؛ فقد أقام القوط في إسبانيا دولة اعْتُبِرَتْ أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الجرماني، وبقيت بعد ذلك تتمتَّع بقوة عسكرية

مُذرِّبة وقوية، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات. سنة ٩٢هـ/٧١١م حط المسلمون الرحال بالأندلس تحت إمرة طارق بن زياد بعد أن عبروا المضيق الذي سمي على اسمه، وانتصروا على مملكة القوط الغربيين في معركة وادي لكة، ليلحق بهم موسى بن نصير إثر الوصول إلى طليطلة وينطلقوا في ربوع البلاد فاتحين.

يقول لوبون في كتابه حضارة العرب : » إذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد وما بعده، حيث كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًا رأينا أن مراكز الثقافة في أوربا كانت أبراجًا يسكنها (سنيورون) متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون، وأن أكثر الرجال معرفة كانوا من الرهبان المساكين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم؛ ليكشطوا كتب الأقدمين بخشوع، ودامت همجية أوربا حتى القرن الحادي عشر، حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم«.

ما إن استقرت أحوال الأندلس تحت حكم صقر قريش عبد الرحمن الداخل ١١٣ هـ/٧٣١ م – ١٧٢ هـ/٧٨٨ م، حتى بدأ الاهتمام بالعلوم والثقافة والتربية يأخذ مجراه بصورة متنامية، انطلاقا من «اقرأ» وإيذانا ببناء أمة مبدعة في شتى المجالات، فكانت هناك مكتبة في كل مسجد واحتوت هذه المكتبات على كل أنواع الكتب (دينية وثقافية)، وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٧ هـ/٨٢٣ م – ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م) بدأ المؤرخون يُشيرون إلى المكتبة الأموية كواحدة من أشهر مكتبات قرطبة، واشتهر الأمير عبد الرحمن الناصر بحب الكتب، وعمله على نشر المعرفة في ربوع البلاد؛ فابتنى في قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة، وأدخل إليها الفقراء من الطلاب مجانا، وصارت قرطبة في عهده منارة تجتذب إليها الأدباء والعلماء والفنانين. حتى أن قيصر قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة، حرص أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس.

لقد نهضت الحركة العلمية في فترة الخلافة الأندلسية نهضة شاملة، وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس واستقلالها. فقد شجع الناصر وابنه الحكم المستنصر (٣٠٢ هـ/٩١٥ م - ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م) العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقا عليهم العطاء، وكان للحكم عمال وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض ومغاربها: من بلاد المسلمين، ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاؤوا بكتاب في الفلك أو الطب أو الهندسة أو غيرها من أي بلد غير إسلامي ترجم على الفور وضم إلى المكتبة الأموية، وقد وسع الحكم بن عبد الرحمن الناصر في المكتبة كثيرا، وجعل لها أروقة عظيمة؛ حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين. وقد كثر النسخ في عصره، حتى قال ابن خلدون:» وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء»، ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفي، عن استيعاب العدد العظيم، من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحا عظيما خاصا بالمكتبة، افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه. وذكر ابن حزم أن تليدا الفتى -وكان على خزانة العلوم بقصر بني أمية بالأندلس- أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط.

لم يكن هذا الشغف بجمع الكتب، في عصر الحكم، قاصرا على الأمير، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه، بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب. وشغفت النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب، وإنشاء المكتبات، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم، وكانت من أبرع نساء عصرها، علما وأدبا وشعرا، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة. وكانت سوق الكتب في قرطبة، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة. بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية، ويتذوقون

ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها.

ويعد الطبيب اليهودي حسداي من أشهر هؤلاء؛ فقد كان طبيب الحكم الخاص، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية وألفوا بها مختلف الكتب. وقد حظي الأسقف العالم ريثموندو الإلبيري، المسمى باسمه العربي، ربيع بن زيد، بعناية ورعاية من لدن الحكم؛ لتبحره في علم الفلك والعلوم الفلسفية. ويعد هذا الحبر القرطبي عالما مبرزا، متمكنا من الآداب العربية واللاتينية، وقد شغل مكانة هامة في القصر. ومما ساعد على انتشار الكتب وازدهار الحياة العلمية انتشار صناعة الوراقة في الأندلس حيث تولى الوراقون نسخ ما يظهر من مؤلفات، كما اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وتميزت بهذا الإنتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة، وشاطبة، وقد حاز مصنع شاطبة شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد، قد نقلها عرب الأندلس من بغداد التي أنشئت عام ٧٩٤م كما انتقلت منها بواسطة عرب صقلية والأندلس إلى أوربا.

وتمر السنوات لتتربع الأندلس على عرش الحضارة في شتى الميادين العلمية، ففي زمن المنصور بن أبي عامر (٣٢٧ هـ/٩٣٨ م – ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م) برز أبو القاسم الزهراوي في فن الجراحة وعد مؤلفه: « التصريف لمن عجز عن التأليف» موسوعة لم يؤلف في الطب أجمع منها، حتى أن البعض وصفها بأنها ملحمة كاملة، وليس من الغريب أن تصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحات الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظل المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوروبا. والحقيقة التي ينبغي أن لا تغفل أن الجراحين الذين عرفوا في إيطاليا في عصر النهضة وما تلاه من قرون قد اعتمدوا اعتمادا كبيرا على كتاب: «التصريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي ويقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر:» كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استسقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر».

لم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوربا كما يردد

العموم، وإنما دخلت العلوم أوربا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا؛ وذلك أن مكتبًا للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠م بنقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة فقد تدفقت العلوم العربية على أوربا من خلال الأندلس بعد أن فتح العرب الطريق عبر جبال البرت إلى فرنسا وإيطاليا، حيث عبر العلم والفلسفة العربيان من خلال رأس الجسر الثقافي الذي أقيم في شبه جزيرة إيبيريا إلى أوروبا. وصل أهل الأندلس إلى قمة الحضارة في زمنهم وحققوا الرفاهية المطلقة إذن، انغمسوا في ملذات الحياة ناسين أو متناسين عدوا يتربص بهم، انشغل ولاة الأمر بالنزاعات الداخلية، وصارت شهوة الملك هي المسيطرة على نفوسهم، لدرجة أن سلمت عدة حصون للأعداء وسقطت أخرى تباعا إلى أن سقطت غرناطة، أجمل مدينة في العالم آنذاك. كان يسكنها أكثر من مليون إنسان في تلك الفترة. مدينة العلم والتأليف والاختراعات. آخر قلاع المسلمين في الأندلس.

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين: حيث بدأت الكنيسة محاولة تنصيرهم بالوعظ والإقناع، ومختلف وسائل التأثير المادية، بيد أن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر، لتجنح الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة، متناسية ما قطعته من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام شعائرهم ودينهم، وقد مثل روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران، هما الكاردينال «خمنيس» مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية، والدون «ديجو ديسا» المحقق العام لديوان التحقيق الذي مثل أعظم السلطات الدينية والقضائية في إسبانيا.

لم تهدأ أحقاد الكاردينال خيمينس رغم توقيع التنصير المغصوب على عشرات الألوف من المسلمين، وتحويل مسجد البيازين إلى كنيسة سميت باسم «سان سلبادور»، تعدى الأمر هذا ليرتكب عملا أقل ما يقال عنه بالبربري: ففي ١٢ من أكتوبر لعام ١٥٠١، أمر الكاردينال بجمع

كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية والمصاحف من أهالي غرناطة وأرباضها، ونظمت أكداسا هائلة في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة.

ضمت الكتب العديد من المصاحف البديعة الزخرفة،وآلاف من كتب الآداب والعلوم، أضرمت النار فيها جميعا ولم يستثن منها سوى ثلاث مائة من كتب الطب والعلوم، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة ألكالا دي هنارس، وهي تقع في جنوب غربي وادي الحجارة في منتصف المسافة بينها وبين مدريد. وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامي في الأندلس، هذا، واختلف المؤرخون الإسبان في تقدير عدد الكتب العربية التي صارت رمادا، فيقدرها دي روبلس **E.de Robles** ، الذي كتب بعد ذلك بقرن كتابا عن حياة الكاردينا خيمينيس، بمليون وخمسة آلاف كتاب، فيما يقدرها برمندث دي بردراثا **B.de Pedraza** بمائة وخمسة وعشرين ألفا، والتقدير الذي عد أقرب للمعقول كان هو تقدير كوندي الذي قدرها بثمانين ألفًا. يقول المؤرخ الأمريكي وليم برسكوت عن هذه الحادثة : » إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل، وإنما حبر مثقف، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى، ولكن في فجر القرن السادس عشر، وفي قلب أمة مستنيرة، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها.» وتبقى عملية الحرق التي أشرف عليها الكاردينال سيسنيروس، دليلا على إصرار الكنيسة فرض نسيان شامل ومسح التاريخ الأندلسي من الذاكرة واقتلاع الشعب الأندلسي من جذوره. إذا علمنا أن مصير الكتب التي نجت كان خزانات الكنائس. ترى هل من محض الصدفة أن تكون بداية عصر النهضة في أوروبا هي نهاية عصر النهضة في الأندلس ؟ مجرد تساؤل!

*****

سر النهضة الأوروبية

بقلم مريم المير

سقطت الأندلس ليخبو معها نور أضاء شبه الجزيرة الإيبيرية وانتشر شعاعه خارجها لثمانية قرون.. ولولا عمران شاهد على تلك الحقبة ما ظن أحد أن الإسلام كان هناك على تلك القطعة من البسيطة، ولولا ما أنقذ من كتب لكانت السرقات العملية والأدبية أكثر بكثير..سقطت الأندلس لتنهض أوروبا على أكتفاها من عصورها المظلمة، لم يكن الأمر محض صدفة أبدا فجل كتب الأندلسيين التي لم تحرق أو تتلف كان مصيرها خزانات الكنائس والأديرة، والمعلوم أنه قد تم حمل ثلاثمئة من كتب الآداب والعلوم - التي استثناها الكردينال خمنيس من الحرق – إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة ألكالا دي هنارس (Alcalâ de Henares)، تسمى في الرواية العربية بقلعة عبد السلام أو قلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس؛ أحد أفرع نهر التاجه..

«لقد تجلى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوروبية الحديثة، وظهرت بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر آداب تعد من أعظم ما عرف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوروبا النصرانية، فجاء هذا مسوغا للرأي القائل إن العرب كانوا أساتذة لنا، وما أتى به العرب من المواد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية، وما جاء به العرب من صناعة منقطعة النظير، ومن مبان دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى، كلها أمور يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية التي ازدريناها زمنا طويلا».. كانت هذه شهادة المستشرق الفرنسي لويس بيير أوجين (Louis Pierre، Eugène، Sèdillot Amèlie) (١٨٠٨ – ١٨٧٥ م) في حق العلماء المسلمين إبان العصر الذهبي للأندلس، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الرقي والتطور الذي ساد البلاد في

تلك الفترة من الزمن وانتقال الحضارة بطريقة أو بأخرى لباقي الأرجاء من أوروبا.

نقلت علوم الأقوام السابقين من الرومان والإغريق واليونان إلى الأندلس، وتمت ترجمتها إلى العربية من قبل العلماء الأندلسيين، اطلعوا عليها ودققوا فيها ثم طوروها واكتشفوا وأبدعوا ما لم يكن معروفا من قبلهم، وهكذا عرفت الأندلس تطورا كبيرا، وكان السر في انطلاق عديد من الابتكارات هو محاولة ترجمة آيات القرآن على أرض الواقع كما سنرى فيما سيأتي، ومنه سال مداد النور ليدخل كل بيت وتتوضع قطراته في مختلف ميادين الحياة.

الإشعاع الحضاري

ظلت قرطبة عاصمة لمملكة العرب مدة ٥٠٠ سنة، وكان سكانها يزيدون عن المليون نسمة؛ وكان بها البساتين النضرة والحدائق الغناء الممتدة مسافة عشرة أميال، ولها ضاحية تمتد ٢٤ ميلا، ويقال أنها كانت تحوي ٦٠ ألف قصر، و٢٠٠ ألف بيت و٨٠٠ ألف متجر، و٣٨٠٠ مسجد، و٧٠٠ حمام عام، ومع ما في هذه الأرقام من مبالغة، إلا أنها تعطينا صورة عن عظمة هذه المدينة التي كثرت فيها المكتبات، ومنها مكتبة الأمير التي كانت تحتوي ٤٠ ألف مجلد، وقد طبقت شهرة جامعة قرطبة الآفاق، واكتظت قرطبة إلى جانب ذلك بالمدارس الابتدائية المجانية للفقراء، وقد كتب أحد المؤرخين يقول « بينما كان معظم الناس في قرطبة يقرؤون ويكتبون، كان أهل أوروبا المسيحيون في جهل مطبق، اللهم رجال الدين منهم، ولم ينج من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوروبية»

هكذا كان الحال في قرطبة العظيمة، وطارت شهرتها في أرجاء أوروبا حتى سماها الكتاب الألمان بزينة الدنيا، وقد أم جامعتها الطلاب من جميع أنحاء الدنيا، وشعت منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات أوروبا الكبرى»

ومنذ القرن الحادي عشر حيث ابتدأ إنشاء المدارس في فرنسا، كان يشرف عليها ويقودها في ذاك الحين من تعلموا على أيدي المسلمين في الأندلس أو في صقلية، وكانت أشهر هذه المدارس مدرسة ريمس، التي أنشئت بأمر البابا سلفستر الثاني، وهو البابا الذي تعلم في جامعة قرطبة، بل ونزل إلى الشمال الإفريقي فتعلم كذلك في جامع القرويين بالمغرب.

الإشعاع العلمي

في مجال الفلك:

يحكى أنه بينما كان يجلس، ذات يوم فلكيان عربيان في باحة الجامع وأمامهما كتاب «المجسطي» -ما يعد أكبر تحقيق علمي في الفلك- مرت بهما جماعة من علماء الدين، فتوقفت مستفهمة عن النبع الذي منه يرتوون. فأجاب أحدهم: إننا نقرأ شرح الآية التالية «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت..» (سورة الغاشية)

وهكذا فإن لعلم الفلك لدى المسلم معنى «دينيا» عميقا، وكما قال أحد كبار فلكيي العرب، البتاني (٨٥٠ - ٩٢٩)، فإن «علم النجوم هو علم يتوجب على كل امرئ أن يعلمه، كما يجب على المؤمن أن يلم بأمور الدين وقوانينه لأن علم الفلك يوصل إلى برهان وحدة الله وإلى معرفة عظمته الهائلة وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه»

بهذا اهتم العرب اهتماما بالغا بالآلات الفلكية، وما ورثوه عن اليونان كان بدائيا وأعجز من أن يساندهم في سباقهم نحو الأمجاد التي رسموها لأنفسهم، فكان أن طوروها وزادوا عليها أشياء عديدة وقدموا اختراعات أخرى تشبه المعجزات، مبتكرين بذلك آلات مختلفة للمراقبة والقياسات، أخذها الغرب عنهم وبقي على استعماله لها أمدا طويلا..

ومن بين الأسماء البارزة في هذا المجال نجد العالم أبا القاسم مسلمة المجريطي (٣٣٨هـ/٩٥٠م) الذي اختصر جداول البتاني الفلكية ونقلها مع كثير من العلوم من المشرق العربي إلى بلاد الأندلس، حيث بقِيَت

من أهمّ مصادر المعرفة هناك، ووُجدَت لها مسارب ومنافذ عبرَها إلى أوروبا عصر النهضة بعد أن تُرجمت إلى اللغة اللاتينية. لذلك نجد رسالته عن الإسطرلاب يترجمها جون هبالينيس إلى اللاتينية، وكذلك تعليقه على إنتاج بطليموس، يترجمه رودلف أوف برجس إلى اللاتينية، إضافة إلى كتاب «الحساب التجاري». يقول عنه سيد حسين نصر في كتابه «العلوم والحضارة في الإسلام»: «عُرِف المجريطي عند الأوربيين بأنه أوّل من علّق على الخريطة الفلكية لبطليموس ورسائل إخوان الصفا والجداول الفلكية لمحمد بن موسى الخوارزمي من علماء العرب والمسلمين في الأندلس. كان له شهرة عظيمة في الرياضيات والفلك، إضافة إلى ما ناله من احترام وتقدير لمجهوداته الجيدة في علم الكيمياء».

في مجال الطب والصيدلة

كان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات،وعلى يدهم أنشئت أول مدرسة للصيدلة.. ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئا على ما وصفوه من العلاج للجدري والحصبة وكانت قرطبة في ذلك الوقت المدينة التي يلجأ لها الأوروبيون لتجرى لهم العمليات الجراحية، وعد الجراح الأندلسي الكبير أبو القاسم الزهراوي (- ١٠١٣) رائدا ليس في علم الجراحة فقط وإنما في مداواة الجروح وفي تفتيت الحصاة داخل المثانة، وفي التشريح وإجراء العمليات وقبل برسيفال بوت (Percival Pott) (١٧١٤- ١٧٨٨) بثمان مئة سنة اهتم الزهراوي أيضا بالتهاب المفاصل وبالسل في خرزات الظهر (فقرات)، الذي سمي فيما بعد باسم الانجليزي بوت، بالداء البوتي. كما أنه أول من أوصى بولادة الحوض (Steissgeburt) التي كان يمتنع دوما عنها سورانوس (Soranus) وسابقوه، وهي الولادة المسماة حديثا باسم الأستاذ الشتوتغرتي (نسبة إلى مدينة Stuttgart) في أمراض النساء فالشر Walcher.

و نجح أبو القاسم في عملية شق القصبة الهوائية (تراكيوتومي) وقد

أجرى هذه العملية على خادمه، ووفق أيضا في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة، محسنا بذلك عملياته الجراحية ومسهلا بضع الأعضاء، وهو فتح علمي كبير ادعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسي الشهير امبرواز باري (Ambroise Paré) عام ١٥٥٢، في حين أن أبا القاسم قد حققه وعلمه قبل ذلك ب ٦٠٠ سنة.

والجدير بالذكر أن كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» المكون من ثلاثين مجلدا، بسبب تعقيده ورفعته استغرق المترجمون الأوروبيون ٣٠٠ سنة حتى يفصلوه ومن ثم يترجموه إلى اللاتينية واللغات الأوروبية.

الإشعاع الثقافي والفني

في مجال الترجمة

مثل النشاط اللغوي في التجربة العربية القديمة مظهرا مهما من مظاهر ارتباط التطور الفكري بتطور الخطاب اللغوي بين ميدان المعرفة ونظام اللغة. ولما كان التطور الفكري والحضاري في العربية قد قام على الاستفادة من تجارب الشعوب التي انتظمتها الحضارة الإسلامية بأبعادها الثقافية المتنوعة، فإن تطور العربية لم يكن كذلك ضربا من النمو الذاتي التلقائي، بل كان أيضا شكلا فنيا قائما على توسيع متعمد لبنية العربية قصد استيعاب نشاط اجتماعي ثقافي، وإنتاج فكري علمي وأدبي.

وبقيت اللغة العربية محتفظة بمكانتها الرفيعة عند النصارى، كلغة علم وحضارة لأكثر من مئتين وخمسين سنة بعد سقوط طليطلة بأيدي النصارى في سنة (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م)، فقد استمر استخدام اللغة العربية من قبل من كانوا في السابق رعايا الدولة الإسلامية في الأندلس من المستعربين والمدجنين في إسبانيا النصرانية، فاستخدموا العربية في تحرير عقود الزواج وفي مستندات الملكيات للأراضي وغيرها من المصالح العامة، مما أدى إلى دخول الكثير من المصطلحات العربية في

اللغة الإسبانية، واللغة هي خير برهان للتطور الذي وصله أهلها، فهناك آلاف المفردات العربية في اللغة الإسبانية والبرتغالية، وهذا انعكاس لحاجات وضرورات ملحة؛ فقد حدث نفس الشيء بالنسبة للغة اللاتينية في اتخاذها الكثير من المفردات العربية في لغة الأدب واللغة الدارجة.

لقد أثرت الترجمات الضخمة للتراث العربي الإسلاميفي معظم مدارس البحث العلمي الإسبانية للتراث العلمي العربي على الفكر الأوروبي، فكانت سببا في دفع عجلة التقدم والازدهار العلمي الأوروبي ولم تكن باستطاعة أوروبا التقدم بمسيرة حضارية إنسانية إلا بعد أن عكفت على ترجمتها للعلوم من العربية إلى اللاتينية قرونا من الزمن. وقام الأساقفة والرهبان والنبلاء بجهود مادية وعلمية في تشجيع حركة الترجمة للمؤلفات العربية العلمية، كما لم يكن باستطاعة النصارى الحصول على مؤلفات الإغريق وفلاسفتهم إلا عن طريق العرب المسلمين ونقولهم، واستمر الحال على ذلك بضع قرون، وبفضل العرب تمكن النصارى من الاطلاع على مؤلفات بطليموس وأرسطو وغيرهم، فانكشف اتساع آفاق هذه المعارف لا سيما أن المؤلفات اليونانية وصلت إليهم مشروحة ومعلقا عليها ومضافا إليها معارف جديدة، أكسبها العرب ثمرة الازدهار الكبير الذي شهدته الثقافة العربية الإسلامية.

ظهرت الترجمة للتراث العربي في مدرسة طليطلة (Toledo) قبل غيرها من مدن الأندلس بصورة فعالة ونشطة؛ بمرحلة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، ومرحلة من اللغة العربية إلى اللغة الإسبانية مباشرة، وتولى أسقف المدينة ريموند Raimendo (١١٢٦ – ١١٥٢ م)، وكبير مستشاري ملوك قشتالة مدرسة نظامية للترجمة، واعتمد فيها على يهودي متنصر يدعى يحيى بن دريد الإشبيلي وراهب يدعى دومنكو كونديسلفي (Domingo Gondislave)، كلف هذين الأخيرين بنقل الكتب العربية في الرياضيات والفلك والفلسفة، وكان يحيى

الإشبيلي يحسن اللغة العربية والقشتالية، ينقل من العربية إلى القشتالية، ويقوم كونديسلفي مباشرة بترجمتها من القشتالية إلى اللاتينية، وهكذا ذاعت شهرة مدرسة طليطلة للترجمة ووصلت أصداؤها إلى أنحاء أوروبا ليهرع إليها نفر كبير من الدول الأوروبية وتفتح الباب على مصراعيها أمامهم لينهلوا مما جاد به أطباء وعلماء وفلاسفة الأندلس من كنوز علمية أثرت بنهضة أوروبا كثيرا.

في مجال الفن

تميز الفن الإسلامي بصفة تجريدية وكان سببا في بروزالاتجاه الهندسي في زخارفه، كما ساده بوجه عام ميل إلى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية. فعمد الفنان المسلم إلى تحوير التماثيل. وقد حوت قصور الخلفاء والأمراء على كثير من شواهد الفنون الهندسية والتماثيل كنافورة بهو السباع بقصر الحمراء وتصاوير قاعة القضاء وقصر البرطل من قصور الحمراء. وبعض النقوش المحفورة في أحواض الرخام وعلب العاج وبعض التحف المصنوعة من المعادن.

وقد تفنن الأندلسيون كذلك بصناعة السيوف الثمينةوالتروس والرماح والسروج والدروع، وكان الأمراء والسلاطين يهدون بعض هذه السيوف إلى ملوك المسيحية. ويميزها أن مقبضها كان يزين بالذهب والأحجار الكريمة. وقد أهدى أبو الحجاج يوسف سنة ١٤٠٩م سيوفا من الفضة الخالصة إلى دون خوان الثاني والأمير دون إنريكي.

لقد استمرت المؤثرات العربية الإسلامية في الأندلس بعد خروج العرب من الأندلس، فبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بنيت كنائس جديدة تقليدا للفن المعماري الأندلسي، وظهر تأثير العرب في نقش الكتابات على جدران المباني العامة وكتابة الخطوط ووضعها على الأبواب. وقد استعان بعض ملوك الإسبان بالبنائين العرب لعمارة قصورهم وهناك الكثير من المهندسين الإيطاليين الذين زاروا الأندلس وتأثروا بالفن المعماري الإسلامي فنقلوا مؤثراته وملامحه إلى إيطاليا،

رغم تطور فن البناء هناك، وقد كان للتجار أثرهم البالغ في نقل معالم الحضارة العربية الأندلسية إلى بقية دول أوروبا عدا إيطاليا.

الإشعاع الاقتصادي

في مجال الفلاحة

لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي، وأدخلوها في بلاد الشام، وآسيا الصغرى وفلسطين، ومصر، وإسبانيا ومنها انتقلت إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية، كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند، ونشروهما في جميع أنحاء الشرق الأدنى، ومن تلك البلاد نقلها الصليبيون إلى أوطانهم، وكان العرب أول من زرع القطن في أوروبا، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين (أراضي) معظمها جذب قاحل بفضل وسائل الري المنظم.

وما زالت الآثار الباقية لحد الآن في وديان الأندلس من القناطر والجداول الدارسة تشهد على نبوغ مسلمي الأندلس في تنظيم وسائل الري والصرف، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية

ويعتبر كتاب «الفلاحة الأندلسية» لأبي زكريا محمد بن العوام الإشبيلي من أشهر ما كتب في هذا العلم، وقد ترجم في القرن الماضي إلى الإسبانية والفرنسية وقال عنه «أنطوان باسي» في تقرير قدمه سنة ١٨٥٩ إلى الوطنية الزراعية الفرنسية أنه موسوعة تامة تفرد بها القرن الثاني عشر الميلادي. ويقع كتاب الفلاحة لابن العوام في أربعة وثلاثين فصلا؛ تبحث الفصول الثلاثون الأولى منها الفلاحة بينما تبحث الفصول الأربعة الأخيرة في تربية الماشية، وأكد ابن العوام أنه لم يثبت في كتابه إلا ما جربه مرارا فصح، كما ذكر المصادر والمراجع التي استسقى منها.

في المجال الصناعي

كان للأندلسيين الباع الطويل في الصناعة أيضا، فصناعة الجلد والملف والحرير كانت تزخر بها أسواق طليطلة وكوينكا، وثيوداد ريال وسيكوفيا، وغرناطة، وقرطبة، وإشبيلية وبايثا، وكذا أمكنة أخرى، فكانت هذه المدن تمون بمنتوجاتها كل أسواق أوروبا تقريبا، فكانت برشلونة تبعث بحريرياتها إلى صقلية بل وإلى مصر، وكانت ترسل في مراكبهم البحرية الخاصة، وكذا كان يصدر الزرع والملح والنبيذ والأبازير والخشب والحديد والقصدير والرصاص إلى دول أجنبية وخاصة من الشواطئ الشرقية، أما كوينكا وقرطبة فكانتا تصدران الملف والحرير المصنوع وغير المصنوع، وكذا كان يصدر بغرناطة الورق، وبطليطلة كانت صناعة الجلد المطروز بالحرير والذهب والفضة بلغ غايته في الإتقان، وكان يصدر من ميناء بلنسية ولشبونة الأبازير بأنواعها.

كما كانت حدائق برغوس وبلد الوليد ومدينة الكامبو مدنا خاصة بالمعارض والأسواق للمنتوجات كلها، فكانت المعاملة فيها بالنقود وقطع الذهب والفضة وقسم كبير من الحوالات، ويقال إنه قد وصل ما روج في بعض المعارض من الأموال ما قدره ٥٣٠ ألف مليون مرابيديس (Moravides) فلم تكن هذه المعارض للأندلس فقط بل كانت دولية، فكنت تجد فيها السلاهيم والبسط وبعض منتوجات من سوريا والمغرب، وكانت تأتي أيضا من فرنسا أشياء خاصة بالخياطة، ويقول بعض المؤرخين «إن معرض مدينة الكامبو كانت له شهرة عالمية وكان يعقد مرتين في السنة»

هل انتهى حقا العصر الذهبي؟

وهكذا كانت الأندلس أرقى دولة في العالم بفضل سكانهاالأندلسيين، والشاهد على هذا قول كامبو مانيس الشهير «إن نقطتي الانحلال والانحطاط في اقتصادنا يمكن تحديدها في عام ١٦٠٩م عندما ابتدأنا

بطرد الموريسكيين، وكذلك ابتدأ هبوط الصناعة « وبسبب مرسوم فيليب الثالث خرج عدد كبير من الصناع والزراع الذين ذهب برحيلهم فن الصناعة والنجارة والزراعة وغيرها.. لم تدم المملكة الإسبانية طويلًا، حثت الخطا مولية الأعقاب بعد طرد أبنائها الموريسيكيين، توقفت عجلة التطور والرقي بها، لتغرق في أزمات في مختلف الميادين.. وفيما كانت اسبانيا تتخبط محاولة سد الفراغ المهول في اليد العاملة والعقول المفكرة، كانت أوروبا تنهل من قبس وصل لها حاملا علوما وثقافة قل نظيرها.. وبهذا لم يمض وقت على إعلان سقوط الأندلس حتى أعلنت بداية عصر الأنوار في باقي أركان أوروبا...

*****

الإرث العثماني

الحرب المقدسة

بقلم أيمن حويرة

لو جاز لأحد فناني أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر أن يرسم لوحة تجسد حالة أوروبا منذ نهايات عصر النهضة وعلى مدار قرنين بعدها، للخص ذلك في لوحة واحدة لجنديين متحاربين أحدهما عثماني (مسلم) والآخر روسي (أرثوذكسي)، ولكانت هذه اللوحة كافية إلى حد بعيد لتصوير واحد من أهم الصراعات الذي احتلت صفحات عديدة في كتب التاريخ، الأوروبي منها على وجه الخصوص. فقد استطاعت الحروب العثمانية الروسية التي بدأت بصورة شرسة في عهد السلطان محمد الرابع (١٦٧٦ - ١٦٨١م) واستمرت بعدها مائتي عام حتى بداية تولي السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٧ - ١٨٧٨ م) أن تسيطر على المشهد الأوروبي الشرقي وأن يكون لها بالغ الأثر في بقاء الوضع مضطربا حتى قيام الحرب العالمية الأولى والتي - وفي مصادفة غريبة - أدت في النهاية إلى انهيار كلتا الإمبراطوريتين العثمانية والروسية

برغم انتصار الأخيرة في الحرب.

كانت البداية الحقيقية عام ١٥٧٠، في عهد السلطان سليم الثاني، عندما تحرك الوزير الأعظم صوقللو محمد باشا لدعم خانية استراخان المسلمة ضد جيوش قيصر روسيا إيفان الرابع (إيفان الرهيب) فكان أن حقق المسلمون انتصارهم الأول ضمن ثلاثة انتصارات وحيدة حققها العثمانيون في مواجهاتهم مع الروس، والذي لم يلبث أن آل في النهاية إلى انتصار عسكري روسي مع بعض المكاسب التجارية للعثمانيين. انتظر العثمانيون بعدها قرابة قرن من الزمان حتى التقوا مرة أخرى مع الإمبراطورية التي بدت أنها تناطحهم وتنازعهم القيادة في أوروبا، لكن العثمانيون لم يحالفهم النصر إلا مرتين الأولى في بداية القرن الثامن عشر (١٧١٠ - ١٧١١)، والأخرى في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٣ - ١٨٥٦) وبمساعدة جيوش مصر وانجلترا وفرنسا. لذلك لم يبد غريبا أن تظهر الرسومات الكاريكاتيرية والتي دائما ما أظهرت الدولة العثمانية بمظهر الضعيف الذي لا حول له ولا قوة أمام قوة الدب الروسي العملاق، بل وأظهرت هذا الصراع كصراع عسكري حربي شريف تبارى فيه جنود الفريقين للدفاع عن وطنه وأراضيه. هكذا كُتب التاريخ وهكذا صيغت قصة المواجهات والصراع الذي انتهى بزوال هاتين القوتين.

لكن، وبالنظر قليلا إلى ملابسات الصراع وتفاصيله، يبدو جليا كيف كانت شراسة هذه الهجمة الروسية المدعومة من إمبراطوريات أوروبا، الهجمة التي دائما ما اسمتها الصحف الأجنبية «الحرب المقدسة» أو «مواجهة الهلال والصليب». لم يكن الصراع شريفا أو متكافئا، لم تكن أوروبا حقا صادقة في مشاعرها تجاه الدولة العثمانية التي ظلت بالنسبة لبريطانيا وفرنسا وغيرهما مجرد عضو فاسد يجب التخلص منه، حتى أنه لم يمنعهم من التخلص منه مباشرة إلا الخوف من تغول وتوغل روسيا وإغارتها على أراضيهم. لكن وبالرغم من ذلك الخوف فقد قامت التحالفات المتتابعة مع قياصرة روسيا ضد العثمانيين

المسلمين من أجل إرهاقهم والاقتطاع الدائم من أراضيهم. كان ذلك واضحا في تحالف هابسبورغ، والنمسا، وبولندا، وليتوانيا، والبندقية مع القيصر بطرس في نهاية القرن السابع عشر لينتصر هذا التحالف ويقوم بعدها خوجة راغب الصدر الأعظم العثماني بعمل هدنة طويلة مع عدوه الروسي اللدود انتهت بموت راغب واجتياح الروس لبولندا (١٧٦٨ - ١٧٧٤) وتحريضهم للصرب والجبل الأسود (وكانا تابعتين للدولة العثمانية) ضد الحكم العثماني، فكانت معركة جديدة وهزيمة عثمانية جديدة انتهت بتوقيع الخليفة العثماني (عبد الحميد الأول) معاهدة كوتشك كاينارجي أحد أسوأ المعاهدات التي وقعها العثمانيون والتي خسروا بموجبها السيطرة على الملاحة في البحر الأسود ثم شبه جزيرة القرم المسلمة.

كان العثمانيون على موعد مع انتصارهم الأخير على روسيا فقط حين تخلت عنها أوروبا وحارب الإنجليز والفرنسيين وأرسلت مصر وتونس جيوشها لدعم العثمانيين، وقد كانت دهشة نيقولا الأول قيصر روسيا كبيرة حين علم بوقوف بريطانيا المسيحية مع العثمانيين ضده في حربه المقدسة والتي ادعى أن هدفها هو السيادة على المقدسات المسيحية في القدس. لكن بريطانيا - وكما جرت العادة - لم تكن حينها تظر إلى الأمر إلا من خلال مصالحها والتي بدت مهددة بالخطر إذا ما انتصر الروس وزاد طموحهم وميولهم التوسعية. لكن ما هي إلا عشرون عاما حتى عاد التحالف الأرثوذكسي ليحارب دولة الخلافة وينتصر مجددا، مجتثا أراض شاسعة من جسد دولة الإسلام، فمُنحت مملكة النمسا البوسنة والهرسك، ونالت صربيا والجبل الأسود استقلالهم وخضعت قبرص لسيطرة بريطانيا، ولم تكف روسيا وحلفائها عن إذكاء روح التمرد في باقي أقاليم البلقان فكان أن جاءت حرب البلقان (١٩١٢) لتنقض على جسد الدولة العثمانية المتهالك فتقتطع منه ما تبقى له في أوروبا ثم تأتي الحرب العالمية الأولى لتقضي عليه تماما.

السقوط

قناة السويس المجني عليها

بقلم أيمن حويرة

السابع عشر من نوفمبر ١٨٦٩، هذا هو التاريخ الرسمي لبداية القصة، ربما تكون البداية الحقيقية قبل ذلك بخمسة عشر عاما حين منح سعيد باشا - والي مصر - امتياز حفر قناة السويس لصديقه فرديناند ديلسبس، هذا الفرنسي الذي حلم طيلة أربعة وعشرين عاما بهذا المشروع حتى استطاع أن ينال تصريحا أوليا بوضع لبنة مشروعه هناك، بين البحر الأحمر والمتوسط. ثمانية ملايين جنيها مصريا هي رأس مال الشركة التي أنشئت في ١٥ ديسمبر ١٨٥٨، وزعت على ٤٠٠ ألف سهم قيمة كل منها ٢٠ جنيه عُرضت للاكتتاب في العالم كله، وقد اكتتب الشعب الفرنسي في ٢٠٧,١١١ سهما (٥٢٪) بينما اشترت أسبانيا وهولندا ٣٪ (١٢ ألف سهم) في الوقت الذي اشترت فيه روسيا ١٥ سهما. وقد خصص ديلسبس ٦٤ ألف سهما لمصر اشتراها سعيد باشا كلها، ثم زادت فيما بعد ل١٧٦,٦٤٢ سهما بعدما رفضت بريطانيا والنمسا والولايات المتحدة شراء النسبة التي خُصصت لهم وبذلك استحوذ الباشا على ٤٤٪ من أسهم الشركة. وقد عارضت بريطانيا المشروع وتوجست خيفة من نتائجه التي كانت تصب في مصلحة فرنسا، حتى أنها أوعزت للسلطان العثماني لرفض المشروع. لكن وبالرغم من رفض السلطان للمشروع بدأ ديلسبس الحفر في ٢٥ أبريل ١٨٥٩. وقد كان عقد الامتياز مجحفا حيث نص على أن يكون ٨٠٪ من العمال مصريين (من ٢٠ إلى ٣٠ ألف عامل من أصل ٥ مليون هو عدد سكان مصر حينها)، حتى أن سعيد باشا قال لسفير بريطانيا قبل وفاته: «أغلب الظن أني جاوزت كل حد في التزاماتي بالقناة ولم أتريث».

بعد تولي إسماعيل ولاية مصر قضى ستة أعوام فيتسوية المشاكل والنزاعات مع شركة قناة السويس، ومنها الحكم الذي أصدره

الإمبراطور نابليون الثالث في يوليو ١٨٦٤ بأن يدفع الخديو مبلغ ثلاثة ملايين ونصف مقابل الخسارة التي تتحملها الشركة نتيجة إلغاء الإعفاء من الرسوم الجمركية والضرائب، وقد سدد الخديو المبلغ الذي يوازي رأس مال الشركة على أقساط آخرها في ديسمبر ١٨٦٩،كما تنازل عن أرباحه لمدة خمسة وعشرين عاما تنتهي في يوليو ١٨٩٤ (رهن أسهمه). أنفق إسماعيل مليون ونصف جنيه في حفل افتتاح القناة أضيفت إلى ديونه الأخرى التي بلغت ٩٦ مليون جنيه، وقد كانت هذه الديون ديونا شخصية عليه إلى أن استطاع أن يحصل على فرمان من السلطان العثماني عام ١٨٧٣ يطلق فيه يده في الاقتراض، وقد ترتب على ذلك تحويل ديون إسماعيل لديون على مصر. وهو ما توجه الخديو في ١١ يونيو ١٨٧٣ (بعد ٣ أيام من الفرمان) بتوقيعه مع هنري أوبنهايم ما يطلق عليه القرض المشئوم والذي فيه قام فيه باقتراض ٢٠ مليون جنيه لسداد جميع ديونه قصيرة الأجل، لكنه في الوقت نفسه ألزم بدفع مبلغ سنوي كبير جدا ومُنع من الاقتراض من أي جهة أخرى طوال عامين، وهو ما جعله في النهاية يلجأ لبيع أسهمه في القناة كاملة يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ مقابل ٤ ملايين جنيه!!

لم تهنأ القناة بالراحة بعد أن آلت جميع أسهم مصر إلى بريطانيا، فما لبثت أن كانت طرفا في نزاع عرابي مع الخديو توفيق، تلك الأحداث التي فكر فيها عرابي في ردم القناة ليقطع الطريق على القوات البريطانية المتقدمة نحو مصر لدعم الخديو واحتلال البلد، لكن ديلسبس خدع عرابي ووعده بألا يسمح لهم بالمرور وهو ما لم يحدث، فكانت القناة المجني عليها سببا في احتلال مصر منذ الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٢ وحتى جلاء آخر جندي بريطاني عام في ١٨ يونيو ١٩٥٦. وطوال أربعة وسبعين عاما هي عمر الاحتلال في مصر لم تتذوق مصر حلاوة هذه القناة ولم تستطع الاستفادة منها بعد أن صارت لا تملك منها إلا وجودها على أرضها، بل لقد حاولت شركة القناة في عام ١٩١٠ مد الامتياز لأربعين عاما أخرى تنتهي عام ٢٠٠٨ بشروط مجحفة لكن

مصر رفضت.

غادر الإنجليز أرض القناة في يونيو لكنهم عادوا مرة أخرى في أكتوبر بعد أن أمم ناصر القناة، ومعهم الفرنسيون والصهاينة لتشتعل الحرب في مصر، بل لم تكن الحرب هي الكارثة الوحيدة التي ترتبت على تأميم القناة وإنما كانت ردود الأفعال العالمية والتي أتت بنتيجة عكسية تماما لما تمناه ناصر عند تأميمه القناة. كيف لا وقد دفعت مصر تعويضات توازي قيمة القناة، كيف وقد جمدت أموال الحكومة المصرية في كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وقيمتها ٤٥ مليون دولار (بما يوازي ١٥ مليون جنيه). ولم تكتف الدول العظمى بذلك بل استمرت بالضغط على الحكومة حتى أذعن مدير شركة قناة السويس إلى جميع اتحادات أصحاب السفن بأن يدفعوا رسوم المرور في القناة إلى شركة قناة السويس وليس إلى الحكومة المصرية، وبلغت نسبة مجموع الرسوم التي دفعت إلى الحكومة المصرية منذ التأميم وحتى إغلاق القناة ٣٥٪ تقريبًا والباقي دفع لشركة قناة السويس، وقدر ذلك بأكثر من خمسة ملايين جنيه مصري. وقد أسفرت المفاوضات التي تلت العدوان الثلاثي عن موافقة مصر على دفع تعويضات لشركة القناة ومساهميها قيمتها ٢٨ مليون جنيه. أعيد فتح القناة للملاحة بعد عدة أشهر من إغلاقها بسبب عدوان ٥٦، لكنها انتظرت عشرة أعوام فقط لتعود مرة أخرى إلى أحزانها وتغلق بسبب مغامرة متهورة من القيادة السياسية والعسكرية في مصر. لم يكتف ناصر هذه المرة بإغلاقها في وجه الملاحة لكنه أتاح للصهاينة أن يقضوا ست سنوات كاملة على ضفتها الشرقية يقيمون السواتر والدشم. وانتظرت القناة حتى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ لتلامس مياهها قوارب الجيش المصري العائد لسيناء ثم انتظرت عامين آخرين حتى عادت لممارسة مهامها الموكلة إليها منذ أكثر من قرن من الزمان لتعيش القناة حياة عصيبة دائما ما لعبت فيها دور المجني عليه الذي لم يستطع أن ينجو من تسلط القريب والغريب، حياة كانت فيها

مغلوبة على أمرها منذ بدأت حكايتها قبل خمسة عشر عقدا!!!

*****

حركة عرابي... ثورة أم هوجة؟

بقلم أيمن حويرة

تبدو حركة عرابي كتمثال في تاريخ مصر الحديث، حدث جامد يخلو من الحياة لا يتم التعامل معه أو تناوله بالقدر الكافي من التحليل، لا يختلف الكثيرون حول أحداثها وملابساتها لكن ربما ربما يختلفون في تسميتها.. هل كانت ثورة أم كانت مجرد هوجة عشوائية كُتب عليها الفشل؟ كثيرون هم من يعتبرونها ثورة شعبية قادها عرابي من أجل الوطن، صحيح أن العسكريون هم من شكلوا النواة الأساسية لهذه الثورة وقادوها في معظم مراحلها، لكن الشعب ساندها في لحظات مفصلية كحادثة عابدين في سبتمبر ١٨٨١. لكن النظر إلى مطالب هذه الحركة بل وأسبابها يؤكد أنها غريبة بعض الشيء عن هذا الشعب الذي اقترن وصفها باسمه. ربما لو تم تحليلها بشيء من الإنصاف لصُنفت كمظاهرات فئوية قام بها الجيش لتحسين ظروفه والقيام ببعض الإصلاحات التي يراها معظم من قاموا بالحركة ضرورية. لكن على الجانب الآخر، لم تخل مطالب هذه الحركة مما يصنف على أنه إصلاحات سياسية على مستوى الدولة نفسها تصب لاحقا في مصلحة الشعب، عودة مجلس النواب كمثال وإلغاء الامتيازات الأجنبية تجعل هذا الحدث على بعد عدة خطوات من التصنيف كحدث ثوري حتى وإن قام به الجيش في معظمه، مع ضرورة عدم إغفال أن الاجتماعات الأولى التحضيرية شملت الحزب الوطني وبعض الرموز الدينية والثقافية.

لماذا إذن قد تصنف هذه الحركة على أنها مجرد هوجة؟ تسلسل الأحداث وردود الأفعال في المواقف المختلفة التي مرت بها الحركة تدعو البعض لتوصيفها بهذا الوصف، ربما ساعد على ذلك الظروف غير

العادية التي مرت بها مصر بل والدولة العثمانية نفسها، وازدياد النفوذ الأجنبي في المنطقة خاصة بعد هزيمة العثمانيون في الحرب الروسية وبداية مرضهم الذي أدى في النهاية إلى وفاة الدولة. لكن بالنظر إلى قادة الحركة نفسها وما فعلوه من اعتذار بعد محاكمتهم يدعو إلى التفكير قليلا في حقيقة الروح الثورية والأهداف الشعبية التي هب من أجل عرابي ورفاقه ومصداقيتها ومصداقيتهم هم أنفسهم. فهذا هو شوقي يهجوه في قصيدته الشهيرة قائلا: صغار في الذهاب وفي الإياب.. أهذا كل شأنك يا عرابي والتي يقال أنه كتبها بعد أن طالب عرابي الإنجليز بتنصيبه ملكا على مصر بعد أن قدم اعتذارا للملكة فيكتوريا.

هذه إذن هي قصة عرابي وحركته التي حار المصريون في تسميتها، الحركة التي لا نعلم أكانت سببا في احتلال مصر أم أن الاحتلال كان حتميا لكنه اختبأ خلف هذه الحركة وتعلل بها، الحركة التي لا نعلم لماذا دعمها عبد الحميد ثم أعلن عصيان قائدها، الحركة التي لازلنا نتساءل هل هي ثورة أم مجرد هوجة؟

*****

الخط الحديدي الحجازي

بقلم أيمن حويرة

على بعد كيلو مترا واحدا من بيت رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ومسجده، ومن نفس المكان الذي بدأت منه أعظم رحلة في تاريخ الحضارة الإنسانية، تلك الرحلة التي امتدت لما يقارب ١٤٠٠ عام، كان المسلمون على موعد مع رحلة أخرى يقطع فيها بطل الرحلة أكثر من ١٤٠٠ كيلو متر أسبوعيا لمدة تسع سنوات، رحلة تمناها عبد الحميد وحلم بها منذ أن ارتقى عرش الدولة العثمانية، رحلة تربص بها الجميع تماما كما تربصوا بمثيلتها التي بدأت منذ أربعة عشر قرنا حتى أتوا على كليهما وأجهزوا عليهما، فمات خط الحجاز قبيل نهاية الحرب

العالمية الأولى على يد الإنجليز الذين لم يلبثوا مع حلفائهم أن قضوا على العثمانيين بعد بضعة سنوات من سقوط قطارهم، لتتوقف الصافرة تماما معلنة نهاية الرحلة بعد تدمير القطار وتعثر سائقه.

لم يكن خط الحجاز مجرد قطار أو قضبان، لم يكن مجرد خط حديدي، لكنه كان ملخص لرحلة العثمانيين ودولة الخلافة الإسلامية وتاريخها منذ عهد الخلفاء الراشدين وحتى إلغاء الخلافة في مارس ١٩٢٤. في البداية كان الحلم الذي لم يصدقه الكثيرون، كانت العقبات لا تعد ولا تحصى لكن العثمانيون بذلوا من الجهد ما كفل لهذا الخط أن يخرج إلى النور وأن تلامس عجلات قطاراته قضبانه لتقطع الطريق من أسطنبول عاصمة دولة الخلافة إلى مدينة رسول الله وعاصمة الإسلام الأولى في خمس أيام فقط بدلا من شهرين كاملين. استطاع السلطان عبد الحميد أن يحقق حلمه ويعيد وحدة مدن المسلمين، بل والمسلمين أنفسهم، برباط حديدي في هيئته ومعنوي عقائدي في رمزيته، فبداية من إصراره على أن يتكفل المسلمون فقط بجميع مصروفات تكلفة إنشاء هذا الخط بدلا من تحمل أيا من الشركات الأجنبية لهذه المصروفات، مرورا بتبرعه الشخصي بأكثر من ثلاثمائة ألف ليرة من أصل ثلاثة ملايين ليرة هي مجموع تكلفة الإنشاء، وانتهاء باستعانة مدير المشروع وكبير مهندسيه مختار بك بالمسلمين فقط لاستكمال أعمال الخط بداية من مدائن صالح وحتى محطته الأخيرة بالعنبرية يبدو جليا الفكرة وراء هذا المشروع.

بدأت أول رحلات الخط بينما كان التاج العثماني يتهالك والدولة تمرض، تزامن افتتاح الخط في الأول من سبتمبر ١٩٠٨ مع استيلاء جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم في إسطنبول وتأهبهم لإزاحة عبد الحميد وهو ما تم بعدها بعدة أشهر، فلم يهنأ الخليفة برؤية حلم الوحدة الإسلامية الذي تمناه واقعا ملموسا. ربما لم يكن هدف عبد الحميد الأوحد هو نصر الدين بتشييد هذا الخط، ربما أراد بعض التأمين والحماية العسكرية، ربما حتى أراد المجد، لكن الأمر

المؤكد أن تدمير هذا الخط على يد الإنجليزي لورنس لم يكن أبدا في سبيل نصر الدين ورفعته، لقد استطاع هذا الخط أن يزيد من عدد الحجاج من ثمانين ألفا إلى ثلاثمائة ألفا، استطاع أن يقيم نهضة حضارية واقتصادية على طول الطريق من إسطنبول وحتى المدينة المنورة، استطاع أن يجمع أهل دمشق والقدس والحجاز في مشهد لم نعد قادرين على رؤيته بعد توقف الخط عن العمل .

*****

الحرب العالمية الأولى، بذور القومية

بقلم إبراهيم أحمد عيسى

عرف عام ١٩١٦ نقطة التحول في الحرب، فمع قدوم العام الجديد كانت دول المركز تتفوق بانتصاراتها ورغم الخسائر الفادحة كانت صامدة أمام إصرار دول الوفاق في إنهاء الإمبراطوريات العجوز، ازدادت حدة المعارك خلال عام ١٩١٦ حيث شهد معركة «فردان» التي كانت سبعة أشهر من المذابح والجوع، أصاب الجنود الجوع وتفشى مرض الزحار، لم يكن هناك مجال للانسحاب بين الطرفين، من يفكر في الانسحاب يعدم بيد رفاقه، ومعركة السوم التي استمرت أربعة أشهر، وكانت المعركتان على أرض فرنسا وظهرت الدبابة لأول مرة في ميادين القتال، وتم إجبار ألمانيا على التراجع، وقُضِيَ على معظم جيشها المدرب في الخنادق لتعتمد على المجندين من صغار السن الأشد بأسا وضراوة.

كان على ألمانيا إظهار قوتها بعد تقهقر قواتها في الأراضي الفرنسية، دفعوا بشيء جديد، الغواصات السلاح الأشد فتكًا في الحرب، فخلال

هذا العام وقعت حرب من نوع خاص في بحر الشمال بين الأسطولين الإنجليزي والألماني عرفت باسم «جاتلاند»، وما زاد الحرب ضراوة محاولة الألمان إغراق أي سفينة تجارية لتجويع بريطانيا وإجبارها على الاستسلام، وكان من بين السفن التي تم إغراقها عدد من السفن الأمريكية؛ مما جعل تلك الأخيرة تفكر في خوض الحرب.

بعد معركة «جناق قلعة-جاليبولي» عادت الثقة للقواتالعثمانية التي كانت حليفة ألمانيا التي صمدت بدورها بعد دخول العثمانيين إلى الحرب إلى جانبهم، ولكن كان لدول الوفاق رأي آخر، فبريطانيا التي هُزمت في حربها المقدسة لإسقاط القسطنطينية -إسطنبول- كان لها رأي آخر وهو استغلال الاضطرابات الاقتصادية والعرقية داخل حدود دولة الخلافة العثمانية التي بدأت تسترد عافيتها بانتصارات حربية لم تعنِ العرب الناقمين على الأتراك بسبب سوء إدارتهم وسوء معاملة «أحمد جمال باشا» قائد العثمانيين بالشام للشخصيات العربية الكبيرة، وعلى رأسهم -الشريف الحسين بن علي- شريف مكة الذي يحلم بإنشاء دولة عربية كبرى، وكانت علاقته بالخلافة العثمانية سيئة جدًا.

استغلت بريطانيا طموح الحسين، كان عليها اجتذابالعرب إلى جانبها، فدخلت في مفاوضات سرية معه بمساعدة ضابط الاستخبارات البريطانية لورنس الشهير بلورنس العرب، وتم تبادل رسائل بينه والسير هنري مكماهون مندوب بريطانيا في مصر والسودان، تعهدت بريطانيا بإعطائه دولة عربية كبرى فدخل الحرب إلى جانبها معلنًا ما عرف بالثورة العربية ضد العثمانيين. بدأت الثورة العربية الكبرى في ١٠ يونيو ١٩١٦ م بإعلان الشريف حسين الجهاد المقدس والثورة على العثمانيين، قطع خط السكة الحديدية الذي أنشأته الدولة العثمانية وسيطر أبناؤه على الحجاز بمساعدة الإنجليز، ثم تقدم ابنه فيصل نحو الشام وبمساعدة الإنجليز دخل إلى دمشق حيث خرج العثمانيون منها وأعلن فيها قيام الحكومة العربية الموالية لوالده الذي كان قد أعلن نفسه ملكًا على العرب غير أن الحلفاء لم يعترفوا به إلا ملكًا على

الحجاز وشرق الأردن.

قامت بريطانيا وفرنسا وروسيا بعقد اتفاقات سرية تناولت اقتسام الأملاك العثمانية بما فيها البلاد العربية، ثم انفردت بريطانيا وفرنسا في اتفاقية سرية عرفت باتفاقية سايكس بيكو (١٩١٦) نسبة إلى كل من المندوب البريطاني مارك سايكس والمندوب الفرنسي فرانسوا جورج بيكو.

فقدت الدولة العثمانية أراضيها في الشام والعراق والحجاز ومصر تحت الانتداب البريطاني كما فقدت من قبل دول البلقان والقوقاز، وبينما كان هذا حال الحرب في الصحراء كانت الحرب تشتعل في أوروبا بإعلان أمريكا الدخول للحرب إلى جانب دول الوفاق الذين كانوا يحتفلون ببداية سقوط الإمبراطورية العثمانية.

في أبريل/ نيسان ١٩١٧، أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية دخولها الحرب لتصبح الحرب عالمية، وكانت الولايات المتحدة قبل دخولها الحرب تعتنق مذهب مونرو الذي يقوم على حياد أمريكا في سياستها الخارجية عن أوروبا، وعدم السماح لأية دولة أوروبية بالتدخل في الشؤون الأمريكية، غير أن القادة الأمريكيين رأوا أن من مصلحة بلادهم الاستفادة من الحرب عن طريق دخولها، وعلى الجانب الآخر استفاد الحلفاء من الإمكانات والإمدادات الأمريكية الهائلة في تقوية مجهودهم الحربي، أما أمريكا فقد كانت تخوض أولى الحروب خارج أرضها وتسعى لإثبات وجودها والمساهمة في القضاء على الإمبراطوريات وتكوين عالم جديد، وانتشرت بالشوارع ملصقات تحث الناس على الذهاب للحرب.

اشتدت المعارك في الجانب الأوروبي وتراجع دور الروس والعثمانيين، أنهكت قواهم وخارت عزائمهم، فكما ضربت طعنة عربية ظهر العثمانيين، قضي على روسيا القيصرية بقيام الثورة البلشفية في أكتوبر/ تشرين الأول قتل القيصر وعائلته لينسدل الستار على إحدى

الإمبراطوريات القديمة، كان المستفيد الأول هم الألمان فقد تم توقيع البلاشفة اتفاقية صلح برست ليتوفسك في الثالث من مارس/ آذار ١٩١٨ التي خرجت بموجبها روسيا من الحرب.

لا تزال الكفة لصالح دول الوفاق حتى بعد خروج روسيا البلشفية من الحرب، فقد أرسلت الولايات المتحدة سفنها الحربية لمساعدة الأسطول البريطاني في حماية قوافل الإمداد حيث كانت تعترضها الغواصات الألمانية، كذلك تم إرسال أفواج من قوات مشاة البحرية الأمريكية إلى فرنسا. قامت ألمانيا بـ»هجوم الربيع ١٩١٨" فعملت على تقسيم القوات البريطانية والفرنسية، وكانت تأمل في إنهاء حربها قبل وصول القوات الأمريكية، لكن الحلفاء قاموا بهجوم مضاد في ٨ أغسطس ١٩١٨ وسمي بمعركة أميان، وقد شاركت في هذه المعركة أكثر من أربعمائة دبابة و١٢٠ ألفا من قوات الدومينيون والقوات الفرنسية والقوات البريطانية، ووقعت عدة معارك من أهمها معركة ألبرت في ٢١ أغسطس ومعركة أراس الثانية التي كانت معركة الدفاع عن خط دروكورت كيويانت.

وفي سبتمبر أطلقت قوات الوفاق هجومًا نهائيًا على خط هيندينبيرغ في معركة غابة أرجون، وفي الأسبوع تغلغلت القوات الأمريكية ومن خلفها القوات الفرنسية إلى مقاطعة شامبانيا الفرنسية وبدأت معركة بلانك مونت ريدج وأجبر الألمان على التراجع نحو حدود بلجيكا، واستطاع الفيلق الكندي والجيش البريطاني الأول والثاني من اختراق خط هيندنبيرغ ووقعت معركة كامبري الثانية. وكانت هذه المرحلة الأولى لهجوم المائة يوم، فأجبروا الجيش الألماني على التراجع مما جعل ألمانيا تطلب الهدنة من الحلفاء. بلغاريا أول من وقعت على الهدنة في ٢٩ سبتمبر/ ١٩١٨ في سالونيك بعد انهيار قوات دول المركز، توالت الانهيارات وتوقيع اتفاقيات الاستسلام، أما ألمانيا فقد كانت مجبرة على توقيع هدنة كومبين مع الحلفاء، وكنوع من الإذلال تم التوقيع داخل إحدى مركبات السكك الحديدية في ١١ نوفمبر ١٩١٨

الساعة الخامسة مساء، ويدخل وقف إطلاق النار حيز التنفيذ في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر.

*****

فلسطين الإنسان

بقلم أيمن حويرة

«العالم ليس معنيًا بقدسنا، قدس الناس، قدس البيوت والشوارع المبلطة والأسواق الشعبية حيث التوابل والمخللات، قدس العتالين ومترجمي السياح، خان الزيت وباعة التحف والكعك بالسمسم، المكتبة والطبيب وفساتين العرائس، قدس الجبنة البيضاء والزيت والزيتون والزعتر وسلال التين والقلائد والجلود وشارع صلاح الدين. هي القدس التي نسير فيها غافلين عن «قداستها» لأننا فيها، لأنها نحن، هذه القدس العادية، قدس أوقاتنا الصغيرة التي ننساها بسرعة لأننا لا نحتاج إلى تذكرها، ولأنها عادية. كل الصراعات تفضل الرموز، القدس الآن هي قدس اللاهوت!! العالم معني بـ «وضع» القدس، بفكرتها وأسطورتها، أما حياتنا فلا تعنيه، إن قدس السماء ستحيا دائمًا، أما حياتنا فيها فمهددة بالزوال»

هكذا يقول مريد البرغوثي في خضم رحلته الأولى لرام الله بعد عقود من الغربة، هكذا استطاع بحرفية أديب ومشاعر لاجئ أن يصف جوهر القضية الفلسطينية المعنية دوما بالجغرافيا وأحيانا بالتاريخ، لكنها تتغاضى عن مواطني هذه الجغرافيا وهذا التاريخ، هؤلاء المواطنون الذين صاروا على أسوأ الأحوال لاجئين وعلى أفضلها شهداء.. هذا العالم الذي لا يتحدث عن هؤلاء البشر بقدر حديثه عن اتفاقية أوسلو ومؤتمر مدريد، حتى حين يتحدث عن دير ياسين أو مذبحة الحرم الإبراهيمي يأتي حديثه جامدا خاليا من أي عاطفة، مفتقدا لأي لمحة بشرية، حديثا يعج بالأرقام والتواريخ لكنه يأتي مجردا من أي أسماء، بل حتى حين نتحدث نحن فإننا نتبارى في فضح أرقامهم، ليسوا

خمسين شهيدا بل تسع وتسعين، وكأن خمسين، بل حتى واحدا، ليس كافيًا لنتحدث عنه دهرا كاملا.

سبعة وستون عاما كاملة والعالم لا يتحدث إلا عن التاريخ والجغرافيا، يتحدث اليهود عن وعد الله وعن الحق التاريخي، يتحدث الإنجليز عن وعد بلفور، يتحدث القادة العرب عن النكبة والأسلحة الفاسدة، يتجادل العرب هل حقا باع الفلسطينيون أرضهم أم استوطنها الصهاينة قهرا. سبعة وستون عاما والنكبة تكبر وتكبر وتصير بعمر امرأة مسنة يتعاطف معها الكثيرون فتصير القضية هي قضيتها والنكبة هي نكبتها لا نكبة أهلها، تصير فلسطين الأرض وحدها هي المعضلة لا فلسطين البشر، يتبارى النشطاء في استدعاء ذاكرتهم للقرارات السياسية والمؤتمرات الدولية لكنهم يتناسون الحالات الإنسانية...

يقول إبراهيم نصر الله في رائعته أعراس آمنة: «هل تعرف ما مصير الحكايات التي لا نكتبها؟ إنها تصبح ملكا لأعدائنا»، هذه القصص التي لا يتذكرها إلا من عاشها تذهب إلى غياهب النسيان تحت وطأة فوضى الأرقام وحرب المفاوضات، هكذا يصبح محمد الدرة مجرد صورة تزين صفحات البعض في ذكراه، لكن هذه الصورة لا تتجاوز الإطار التي حوصرت فيه، صورة تفتقد حيويته وبراءته، تتجاهل نبضات والده المتسارعة ودموعه العاجزة وقصة سنوات قضاها مع طفله، تلك السنوات التي أنهتها رصاصة ثم محتها صفحات التاريخ الظالم.

إن بطولات الإنسان الفلسطيني لهي حقا جديرة بأن تتوج تاريخ هذا العالم، هذا الإنسان الذي صار صديقا لرصاصات البنادق يستقبلها باسما، ذلك الطفل الذي اعتاد حمل الحجارة بدلا من ألعاب الصغار، هذه الأم التي لا زالت تزغرد كلما جاءها نبأ استشهاد أحد أبنائها، تزغرد حتى لاتجعل قاتله يحس لحظة أنه هزمها، لكنها لو عاشت فستبكي كثيرا بعد أن تتحرر الأرض، هذا الجد الذي كان يخاف القبور لكنه اعتادها بعد أن صار له فيها من الأحبة أكثر مما له فوق الأرض...

هل نحن حقا أمة واحدة؟

بقلم أيمن حويرة

يظل هذا السؤال عالقا في ثنايا عقلي، يظل يتردد بقوة مع كل تعليق يكتبه أحدهم مادحا الخلافة وعصرها ومع كل نقاش حول جدوى عودتها. بل إنه يقودنا إلى تساؤل آخر أكثر وجاهة مفاده وهل الأفضل لنا أن نكون أمة واحدة حتى وإن تخللها بعض الظلم عن أن نكون أمما ناهضة عدة لا رابط لهم ولا جامع؟ يجيب على هذه التساؤل سيدنا هارون بفصاحة بالغة قائلا «إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل»، يواجه هارون أخاه موسى عليهما السلام مدافعا عن سلامة موقفه حين ترك قومه يعبدون العجل من دون الله حرصا على وحدتهم. يرى السامري وهو يستغلهم ويحيد بهم عن منهج الله بل ويدعي أن إلههم هو ذلك العجل ذو الخوار فيصدقوه وأثر معجزة انشقاق البحر لم يزل عنهم بعد، لكنه يتحمل خداع السامري وكفر قومه انتظارا لما قد يراه موسى حتى لا يتشتت بنو إسرائيل بين فريقين أحدهما مفتون والآخر ثاب إلى صوابه. وهل بعد الكفر من ذنب يستوجب وقفة حازمة من القائد أو من ينوب عنه؟

ربما يظن البعض أن هذه رسالة خنوع ورضا بالظلم، لكن ما فعله موسى حين عاد من لقاء ربه لم يخضع ولم يتهاون مع المخطئ، لكنه – وفي المقابل - استطاع الحفاظ على قومه ووحدتهم والتي هي مصدر قوتهم بل والضمان الوحيد لاستمرارهم وقدرتهم على تحدي الظلم ودحره.

إن الإنجاز الأبرز في مشوار الخلافة هو الحفاظ علىوحدة المسلمين، ذلك الإنجاز الذي تضاءلت بجانبه كل الأخطاء التي شابت الثلاثة عشر قرنا هي عمر دولة الخلافة الإسلامية حتى سقوط العثمانيين وسقوط دولتهم. تلك الذكرى التي كلما حلت يتصدر الخلاف التقليدي ساحات النقاش حول جدوى عودة الخلافة ومدى ما حققته تاريخيا حتى

نطالب بعودتها، تتنحى أسماء القانوني وهارون الرشيد وعمر بن عبد العزيز وإنجازات الفاروق وهشام بن عبد الملك وعبد الحميد الثاني جانبا، ليظهر بدلا منها –عمدا - دموية الحجاج ومجزرة كربلاء وكوارث المستعصم، يتردد الحديث عن بيبرس الذي اغتال قطز وسليم الثاني الذي قيل أنه يشرب الخمر والعباسيون الذين فتكوا بالأمويين وكأن أوروبا لم تشهد فظائع يشيب لها الولدان، بل وكأن الخلافة كانت دولة ملائكة تمشي على الأرض فيتم تجاهل السياق التاريخي وحتمياته والتعامل مع الوضع منسلخا عن إطاره. يتغنى البعض بمزايا الدولة الحديثة التي خلعت عباءة الخلافة وكأن إحدى وتسعون عاما غير كافية لنعلم ما فقدنا حين انتهت دولة الخلافة حتى وإن كانت ضعيفة وهشة في آخر عهدها.

اليوم وبعد أن كانت الشام تئن حين تمرض القاهرة، وإسطنبول تبكي حين ترحل غرناطة، صارت الوحدة حلما عسير المنال تماما كما الخلافة، بل ربما أكثر صعوبة، بل إن الوحدة هي السبيل الوحيد لعودتنا إلى ركب الحضارة الإنسانية والخلافة ما هي إلا مجرد وسيلة لهذه الوحدة وليست هدفا في حد ذاتها إنما الهدف الأكثر سموا هو أن نعود حقا أمة واحدة.

*****

تمت